سطوة الغرب الجماليّة: غربة الأجساد عن مخيّلتها

دلال البزري

منذ أن وطأت قدما نابليون بونابرت ميناء الإسكندرية عام ١٧٩٨ وحدوث ما تعارف الباحثون على تسميته بـ «صدمة» أهل الشرق بحضارة الغرب وتفوّقها، لم تخمد حدّة السجال الدائر بين الأطراف المهتمين به، أكانوا معادين لتعبيرات هذه الحضارة أو مناصرين لها.

كان لمسألة النساء نصيب من هذا الخلاف؛ بدأ خجولاً، متعثراً، أولياً بلغته ومفاهيمه... ثم تعاظم مع الزمن. ولئن بوشر السجال مع الطهطاوي والبستاني وقاسم أمين، حول «ضرورة تعلّم الفتاة» لكي تنهض «الأمة بجناحيها»، فقد أخذ مع الزمن يستحوذ على أقلام وأصوات نسائية متزايدة؛ تعلّمت المرأة الشرقية وتأهلت بما فيه الكفاية لتبوح بما يختلج في ذاتها، فصار بإمكانها أن تحلّل وتغوص في ثنايا القهر المجتمعي مطالبةً بالمزيد من «الحقوق» أو «الواقع» أو «الفعالية» في مجتمع أُقصيت عن التأثير في مجاله العام.

إلا أن القضايا المنضوية تحت هذا السجال، وقد باتت تستأثر بأقلام نسائية أكثر من أقلام رجالية، بقيت محصورة في دائرة المجال العام، أي المجال الذي يتناول قضايا التعليم والعمل والمشاركة السياسية، وكل ما يدور حولها من ملحقات، تفصيلية أو عامة. وهذه من المفارقات التي تستأهل التوقف عندها. لماذا؟ لأنه في حين أن رهان السجال هو إطلاق النساء إلى المجال

العام، (تعليم، عمل، سياسة)، فإن أحداً لم يلتفت إلى أمرين هامين:

- أن هذا الكائن، المرأة، الذي يتحمس فريق من المتساجلين إلى تطوير أشكال وظروف خروجه إلى العام، كان محيطه الجغرافي الكلي سابقاً هو المجال الخاص، وما زال حتى الآن، ولو بدرجات متفاوتة.
- ثم إن أحد طرفي هذا السجال، ما زال يعتبر، ولو بتعبيرات ودرجات مختلفة، أن هذا المجال، أي الخاص، بكل ما يتضمن من وظائف وأدوار هو مجال النساء بامتياز. وإذا أقرّ بعض دعاة هذا الطرف بضرورة تغيير مجال النساء الجغرافي، فهم يحاولون سحب مهارات هذا المجال إلى المجال العام: كمثل أن تخصص للنساء مجالات صغرى ضمن المجال العام لأنشطة وأعمال تتطابق أو تتناغم مع الوظائف التي تقوم بها في مجال الخاص (المواساة، الخدمة، العلائقية، إلخ...).

وهذه المفارقة تدفع إلى الانتباه إلى أمر خفي عن التعبير: الأقلام الخائضة في هذا السجال، نسائية كانت أم رجالية، موافقة على خروج النساء أو رافضة له، لم تتطرق إلى النساء في مجالهن الخاص إلاّ نادراً، أي في دراسات محدودة ومبتورة، تقوم بها كاتبات غربيات، أو باحثات عربيات ذوات أقلام غربية، تسنّى لهن اقتناص لحظات أو فصول من حياة نساء الشرق الخاصة.

علينا الإقرار إذاً بأن ذاكرتنا المكتوبة لم تغص في أعماق حيواتنا الخاصة؛ أمّا ثقافتنا الشفهية، فلا تقترب منها إلاّ في حالات أندر من الأولى... في لحظات قصوى من حياتنا، وضمن علاقات حميمة وشديدة الودية، والأهم من ذلك، لو كنّا متمتعات بدرجة ما من الثقة باللغة التي تعبّر عنها، وبإبقائها طي الكتمان... ذلك أن المجال الخاص مسكون بالمحرّمة الكبرى، أي الجنس، وكل ما يدور في فلكه من مسائل تتعلّق بالجسد وأشيائه الحميمة الأخرى.

ومن هذه الأشياء الحميمة التي لم يتطرق إليها السجال الدائر حول النساء، حول الخيارات المستحبة والمتعلقة بأنشطتهن ووظائفهن وأمكنة هذه الأنشطة والوظائف... من هذه الأشياء الحميمة، قلت، كيفية تحوّل أجساد نساء الشرق وسيمائهن منذ حملة بونابرت إلى الشرق و«الصدمة» التي أحدثتها فيه. لذلك، يبقى العديد من الأسئلة معلّقاً، من قبيل:

- من هم الأبطال الحقيقيون لهذا التحوّل؟

- وما هي الصيرورة الدقيقة التي رافقته وشهدت أهم محطاته، إن وجدت محطات؟
- وهل كان هناك مقاومة ما لهذا التحوّل؟
- وما هي المضامين التي حملتها؟ وما هي أشكالها؟

هذا البعد في البحث التاريخي / السوسيولوجي، لو يتحقّق، قد يوفّر لنا أدوات فكرية ومفهومية ثمينة جداً، تجيبنا عن سؤال يدور في خلد كل امرأة من نساء الشرق: ما هو هذا الشيء، غير المسمّى، الذي يحول دون تقرّبي الحميم من جسدي؟ ما هو هذا التفصيل الصغير، أو ربما التفاصيل الصغيرة، التي تجعل ذاك الجسد مرتبكاً بنفسه؟

ذاك الارتباك بالجسد، المحروم من لغته، الواقع على تماس مع مسائل حميمية، تجد مسؤوليته، بل موضوعه، في مستويات عديدة من مجال النساء الخاص. والذي يتبادر إلى الذهن عادة لتفسير هذا الارتباك، دون أن يُباح عنه، هو قصور حياتنا الجنسية /العاطفية عن تلبية حاجاتنا ورغباتنا العميقة. وهذا بحث أراه أساسياً وجوهرياً، لم تستجب له الأقلام العربية بالتفحص والتدقيق إلاّ لماماً؛ لكنه ليس مبحثي هنا. بل ما أود الولوج إليه الآن هو جانب آخر من مجالنا الخاص، يتّصل، ولو تلميحاً، بهذه الحياة العاطفية / الجنسية، يُثقل أجسادنا بوطأته، لكنه غائب حتى عن ألسنتنا الشفاهية. وأحدس بأن جزءاً يسيراً من غربتنا عن أجسادنا يعود إلى كوننا لم نساهم في صناعة الذوق الذي يقدم هذه الأجساد إلى العلن، بما تتضمنه الأجساد من وجه وقامة وثياب وحركة.. إلخ.

من هذا الحدس استمدّ فرضية مقالي؛ وهي فرضية سوف أسحبها على تصوري لعملية تحوّل هيئتنا الخارجية منذ حملة بونابرت: لم تعلم نساء الشرق بقدوم بونابرت إلاّ عبر الرجال الذين ساهموا إما بالاندهاش به أو مقاتلته أو متابعة جولاته... ومن بعد هذه الحملة وبدء التلقي ـ الإيجابي ـ لها، لم يذهب إلى الغرب سعياً وراء علومه سوى الرجال، وبدءاً من الطهطاوي وحتى سهيل إدريس (الحي اللاتيني) أو عبد الرحمن منيف (حكاية حب ماجوسية)، كان أول ما لفت رجال الشرق هو نساء الغرب؛ الجيل الأول من هؤلاء كان مذهولاً، والجيل الأخير صار مغروماً بهؤلاء النساء. ولكن منذ البدء، والفرضية ما زالت قائمة، أُعجب رجال الشرق بنساء الغرب. ومع كل التعقيدات والتناقضات التي تكون قد حكمت سلوكهم،

كان لابد لهذا الإعجاب بأن يُترجم إيعازاً من هؤلاء الرجال لنساء الشرق بأن يباشرن تبنّي بعض مظاهر الغرب المغرية. قد تكون القصة بدأت بأشياء بسيطة كمظاهر التعامل الاجتماعي أو طريقة المشي، أو الحذاء الأكثر ملاءمة، أو أنواع القماش الأفضل.. إلخ. إلا أنك تستطيع تلمّس أولى نتائجها ذات الدلالة الرمزية الفائقة، في التظاهرات التي قادتها نساء عربيات في بعض عواصمهن، في بدايات هذا القرن، والتي انتهت بحرق الحجاب. والمعلوم أن هؤلاء النساء كن مدعومات من أزواجهن أو آبائهن أو أخواتهن؛ هذا ما يفسّر اقتصار تحرّر النساء العربيات في المراحل الأولى من حركتهن على طبقات بعينها، هي القادرة، آنذاك، على إرسال رجالها إلى الغرب بغية التعلّم. وهذا يتوافق مع فرضيتي من أن أولى خطوات تغيّر هيئة نساء الشرق، من الحجاب إلى السفور، كان بتحريض من الرجال للنساء، من أقاربهن المباشرين.

منذ ذلك الوقت لم تتوقف القصة: بدأت بالافتتان بمظهر نساء الغرب وسلوكهن، ومرت بالنزوع إلى تعرية الرؤوس، وما زالت مستمرة بلعبة تعرية الأجساد وتغطية الرؤوس... لعبة تتأرجح بين الحجب والكشف.

سوف يكون لهذه العملية في شرقنا أصدقاء وأعداء، موزّعون، بحسب الشغف العام الذي انتابنا تجاه الغرب، شغف مسكون بالانجذاب واللفظ المتساوي حدّة:

- فمنّا من خلع الحجاب وتعرّى، كثيراً أو قليلاً، وهو مسحور بجمالية الغرب.
- ومنّا من تمسّك بالحجاب (أو «الستر» بحسب داعيه)، بل ذهب إلى النقاب؛وقد وضع نفسه خارج دائرة تأثير الغرب الثقافي.

وكلا الفريقين، كما سوف يتبيّن، يرى في الغرب نقطة استدلاله الجمالية المثلى؛ أكانت هذه الرؤية متجاوبة معه أم معادية له.

واليوم، لم يَعُد الأمر يحتاج إلى بضعة طلبة فازوا بمنحة وذهبوا إلى أوروبا للدراسة، فعادوا منها لا تعجبهم أرداف أخواتهم ولا سمنة أمهاتهم.

اليوم أصبح هناك شيء اسمه الموضة؛ منها نستنبط كافة الأشكال الجمالية التي نتبناها في حياتنا اليومية وفي مناسباتنا الكبرى. ولا أعرف موضة آتية من غير الغرب؛ وإن كانت هناك أسماء لامعة فيها أتت من الشرق (عز الدين علايا مثلاً)، إلا أنها تقولبت بالذوق الغربي، فيما الذي أضافته من ذاتها الشرقية لا يعدو كونه من الأشياء الثانوية.

والموضة التي أقصدها هنا لا تقتصر على المدى الزمني القصير، كالقول بموضة هذا الشتاء، أو الألوان الدارجة هذا الصيف، تبعاً للعروض التي يقدمها هذا المصمّم الغربي أو ذاك. ولا هي موضة الثياب فحسب، أو الحذاء أو الأكسسوار.. إلخ، بل هي الموضة الممتدّة عبر الزمن، التي تطال نواحي لم نعد ننتبه لها لشدة قِدَمها وترسّخ شرعيتها... كالوزن واللون والقامة والمشية والشعر.. إلخ.

لم تَعُد الموضة بحاجة لتوسّط بضعة طلبة، قلت، فوسائل اتصالنا بالغرب تنوّعت وتطورت، خصوصاً وسائل الاتصال المرئي التي تلاحقنا بالصورة حيثما وجدنا. الصورة، تلك الآلة صانعة النماذج الفذّة برسوخها وقدرتها على كسب شرعية تتفوق، بغموض سحرها، على كافة الشرعيات.

ضع جانباً الوسائط الثانوية للموضة، كالزيارات إلى الغرب والأفلام السينمائية. فصورها تعبر الأذهان لماماً... آثارها محدودة حيناً متأخرة أحياناً، ومشتتة غالب الأحيان.

فالوسيط الأشد وطأة والأكثر انتظاماً بيننا نحن، نساء الشرق، وبين الغرب حول موضوع الموضة تحديداً هو الشاشة الصغيرة وملحقاتها، أي الأقنية الفضائية، والإعلانات التجارية وأخيراً المجلات النسائية شديدة الانتشار. وقد صار معلوماً أن الصورة التي تبثها الأوليان هي الأقوى؛ إما بسبب الساعات الطويلة التي نقضيها أمام الشاشة الصغيرة، أو بسبب ملاحقة الإعلانات التجارية لنا إلى حيث نتواجد، في الشارع، أو المقهى، أو الشركات.. إلخ. أما المجلات النسائية، فلا تحتاج إلى إثبات ذيوعها: يكفي أن تتوقف برهة أمام أحد أكشاك المجلات والصحف، لتطلع عليك عشرات من الابتسامات على أغلفة.... هي إشارات إلى «نسائيتها».

تجد في هذه الوسائط الثلاث، وفي المقارنة فائدة، نوعين من الصور النسائية المتوجبة: الصورة الأصلية، الآتية مباشرة من موطنها، أي صورة المرأة الغربية، والتي تبدو على شيء من الاطمئنان للحلّة التي قُدمت بها. ثم الصورة المحلية، والمتجسّدة بالشرقيات اللواتي اقتنين أساليب الغرب وأنماطه في تقديم مظهرهن الخارجي فرسين على الاعتقاد بأنهن بتن يشبهن مثالهن الغربي؛ من مذيعات أخبار، ومقدمات برامج متلفزة، وحتى متباريات في انتخابات ملكات الجمال، مختلفة الألقاب. وهي صورة ينضح منها اضطراب ما، أحدس بأنه يعود إلى حالة من الغربة غير مفهومة الجذور. وهنا أيضاً أزعم بأن أثر الموضة التغريبي على نساء الشرق، هو

أقوى من ذاك الذي قد تستنبطه نساء الغرب. فالغربيات يتعرضن، لا محالة، لضغط على أجسادهن، لكنهن شريكات في معرفة وبناء مقوماته ومناخه الحضاريين. أما نساء الشرق، فلا هن بطبيعة الحال شريكات في صناعة الموضة، ولا هن يلمحن، لا من قريب ولا من بعيد، المعاني الرمزية أو الدلالية أو حتى المناخية التي تتضمّنها هذه الموضة.

خذ مثلاً موضة راجت مؤخراً، موضة بنطلون «البغي» (buggy): وهو البنطلون العريض الذي يُلْبَسُ من تحت الخصر ونزولاً، والطويل بالتالي إلى حدّ أن طرفه يجب أن يطوى من الخلف تحت الحذاء ليبقى ملبوساً. أصل الموضة هذه، يعود إلى أحد الأحياء مدقعة الفقر في مدينة نيويورك الأميركية: فقر وأعداد هائلة من أبناء الحي الذكور يقبعون في السجن. وتعبيراً عن كيد صبيانه وفتيانه الخارجين من الإصلاحيات، بقوا محتفظين بالبنطلون بلا أحزمة تربطه، كما هو الحال في السجن، بحسب قوانينه... فتجَرجَر البنطلون على الأرض، ثم توسّع لاحقاً لأن أبناء السجناء صاروا يلبسون بنطلون آبائهم، مكابرة منهم تجاه أخطار السجون. واليوم، عندما ترى المراهقين والمراهقات، أبناء الفئات الميسورة، وقد ارتدوا بنطلون «البغي»،تسأل نفسك: ما الفرق بينهم وبين أبناء الغرب الأميركي، من حيث تلقي هذه الموضة في الثياب؟ هل يعلمون بأن رواده هم أناس كرهوا السجون إلى حدّ اللامبالاة تجاهها؟ وقس على ذلك مع بقية أيام هؤلاء المراهقين اللاحقة، والحاملة معها المزيد من التلقي السلبي لموض (جمع موضة) تهبط عليهم كالمظلة من مكان مجهول... فيستفيقون مرات ومرات على مفاجآتها غامضة المعنى.

* * *

المثال المظهري الذي نصبو إليه، نحن نساء الشرق، منذ أن سهلت وسائل اتصالنا بالغرب هو مزيج من الأذواق والألوان والأشكال، معظمها غريب عن غالبيتنا: فالعيون الأجمل هي تلك المزرقّة أو المخضرّة بألوان الغرب الفاتحة (استبدل الدالّ اللغوي، ضع «الغازية» بدل «الفاتحة»، وستجد سيادة هذا اللون في لغتنا)؛ والبشرة البيضاء كالثلوج هي المرغوبة، «البنت بيضا بيضا بيضا»، يقول المغني وكأنه اكتشف لقيته. وفي بعض البلاد العربية يصفون السمراء بالـ «مفحّمة»، من فحم... وتكتمل الفواتح عادة بلون الشعر الأشقر، حيث لنسائنا حيلة أكبر، بسبب ابتكار قديم جديد اسمه، «الصبغة». فإذا وضعنا جانباً كل دهاء الحلاقين لإقناع أية امرأة

بضرورة «تشقير» شعرها، وهو أمر ضروري لأن الحلاق ليس سوى وسيط الموضة، نرى أن حلم نسائنا الكبير صار مؤخراً يرتدي صفة التدرّج: يبدأ بصبغ خصل رقيقة بألوان الذهب، ولهذه المرتبة اسم هو «الباليا‌ج»، ثم ينتقل إلى صبغ خصل أقل رقة باللون نفسه، فيبدو الشعر ساعتئذ أكثر ميلاً إلى «الشقار»، ويسمّون هذه المرحلة بالـ «ميش»... إلاّ أن الحلم يبلغ لدى بعضهن مبلغ الصبغ النهائي والصريح إلى اللون الأشقر: وهذه باتت مألوفة في بعض البلدان العربية التي زرتها أو أقمت فيها. وليكتمل هذا النموذج، على النساء أن يتحلين برشاقة وقوام هما من سمات الغرب أيضاً؛ وإلا، فكيف سيكون بوسعهن ارتداء ملابسه، الجميلة والدارجة، ذات القياسات الرقيقة الدقيقة والتي تستلزم أرقاماً لا تتجاوز ٤٠ حسب التعريف العالمي؟ هنا يأتي ما بات معروفاً بالـ «ريجيم»، أي إخضاع شهوات النفس لنظام شبه رهباني من الطعام، يقلل من الوزن ويأتي على البقية الباقية من النضارة: جميع النساء في الشرق يحلمن بكيلوغرامات ناقصة، معظمهن دون مستوى الحلم، والأقلية تحقّقه. وهذه مهارات تحتاج إلى إرادة فذّة ونشاط فائق، لكن سرعان ما تكتشف صاحباتها بأن الترهّل أصاب أجسادهن لقسوة الريجيمات المتتالية؛ فهو ليس بالريجيم الواحد، بل تقضي الواحدة عمرها متنقّلة بين ريجيم وآخر أكثر فعالية. وهنا يأتي الحل في رياضة لها رواج عالمي ونواد تنتشر بسرعة في بعض المدن العربية؛ واسم هذه الرياضة الآروبيك aerobic. أما التي لا تخرج إلى النادي الرياضي، لسبب أو لآخر، فأمامها كاسيتات الفيديو أو الحلقات التلفزيونية، الصباحية خاصة، لتمرينها عليها. غير أن المشكلة في هذا النوع من الرياضة هي نتيجتها: فهي لم تبتكر لإذابة الشحم الزائد وإعطاء بعض رباطة الجأش للجسد بصورة أساسية (وهي غايات محمودة)، بل تعطي الأولوية لمنح الجسد استدارات وعضلات ليست نساء الشرق بحاجة إليها، ربما بسبب إرث الولادات المتلاحقة... فتكون النتيجة حقاً غريبة: استدارات طبيعية مضافاً إليها استدارات «رياضية»، تخفيها الرشاقة وتبرزها أولى بوادر السمنة... وهي توقعك في حيرة من أمرك: هل أنت حقاً أمام جسد حقّق إيقاعه الخاص؟ تبنّى نغمات أستأنس بها؟ أم استقى من كل حدب وصوب مقومات تناغم كاذب، يفصح عن اضطراب مكبوت؟

مثال آخر على الالتواء الجمالي ـ الثقافي: يعلم جميعنا حب جداتنا للذهب واقتنائهن له؛ والصور المتبقية في ذهني عن لبس الذهب لدى جدتيّ الاثنتين فيه عشق لهذا المعدن لم يتجاوز يوماً حدّ الإفراط بإشعاعاته. أما اليوم، فقد تحوّل هذا

العشق الشرقي القديم للذهب إلى وطأة، أو قل مهرجان، على صدور من يحملنه، وعلى عيون الناظرين إليه؛ وذلك لاعتقاد الحاملات له بأنه كلما زاد البريق المنبعث منهن، كلما اقتربن أكثر نحو نموذجنا الغربي للموضة؛ وهو على العموم بريق يليق بالـ «شقار» الذي تلوّن به الشعر، والبياض الذي أحرزته مراكز «تبييض الوجوه» المنتشرة في عدد من العواصم العربية.

أما المراكز، أو بالأحرى العيادات الطبية الأخرى المهتمة بجمال نساء الشرق، فهي تلك المتخصصة بعمليات جراحة الأنوف: والنساء اللواتي يدخلن هذه العيادات، في بالهن أنوف باريسية، مجوّفة في وسطها ومرتفعة في طرفها، أي أنها retroussé. لا أملك إحصاءات حول نسبة النساء المرتادات لهذه الأصناف من العيادات؛ لكن مشاهداتي اليومية تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه النسبة غير قليلة. وأشدّ ما يلفتني في هذه الأنوف الباريسية، إعتقاد صاحباتها بأنهن دخلن جنة الجمال الأمثل؛ في حين أن أنوفهن تعاني من عدم تآلف مع بقية ملامح الوجه، الشرقية أساساً؛ وهي فوق ذلك تفقد جزءاً من الوجه، الواقع تحت الأنف مباشرة، قدراً يسيراً من التعبير... وقد ينمّ ذلك عن قلة إدراك من أن الجمال، بشق لا يستهان به، مصدره الحياة المنبعثة من دواخل صاحبته، والتي لا بد أن تعطي للوجه وملامحه تعبيراته الحسية الملموسة.

أما الإضافات التي أُدخلت على الموضة والمستوحاة من نساء العالم الثالث، كالشعر المجعّد أو اللون البرونزي أو العيون السوداء، فقد أحببناه كما أحببنا ابن خلدون: أي بعدما أحبه الغرب. ثم إنها لا تخرج عن النطاق الفلكلوري، فهي لا تؤثر على الهيكل الجمالي المعتمد. وآخر مثال على سطحية هذه الإضافات هو العارضة السوداء نعوم كامبل: رواجها اللافت جعل البعض يعتقد بأن الذوق الأفريقي الأسود، بعد عصور من القهر، قد ساد. لكن الجواب على هذا الاعتقاد أتى من دولة جنوب أفريقيا نفسها: فعارضات الأزياء السود فيها، خضن معركة ضد كامبل، بصفتها لا تمثل الجمال الأفريقي الأسود: فلا هي سوداء بما فيه الكفاية ولا تقاطيع وجهها الدقيقة، الشبيهة بتقاطيع الوجوه الغربية، هي أفريقية: واللواتي خضن هذه المعركة من العارضات الجنوب أفريقيات، حلقن شعرهن حتى آخره، ونادين بجمال أنوفهن الفطساء وشفاههن الغليظة وأوساطهن المتكورة، الممتلئة...

وعارضات الأزياء أصبحن بطلات الصورة المعاصرة بلا منازع؛ يُستقبلن كالشخصيات الرسمية الكبرى وتوضع على صدورهن الأوسمة، وتتهافت عليهن كافة

الأوساط المخملية والعامة. وما أدخلته عارضات الأزياء جديداً على التمثل الغربي، هو طريقة المشي والجلوس وعبارات في الوجه لم تكن حاضرة في المثالات السابقة: فالـ «غندرة» استبدلت بتقويس للجسم، توضع بموجبه الأجزاء السفلى من هذا الجسم إلى الأمام، ويتراجع بذلك الجزء الأعلى إلى الوراء، فتصير الأرجل بذلك وكأنها شبه منفصلة عن كل ما تبقى... هذا ما تراه في عروض الأزياء وفي بعض شوارع بيروت ومقاهيها وحتى شاشاتها الصغيرة. أما تعابير الوجه، فتعطي الانطباع وكأن المُراد منها هو البقاء في حالة متواصلة من تقديمه. فالملامح هي للعرض، والعرض المغري، وليس للتعبير عن الداخل والمكنونات... لذا يطغى عليها شيء من البله وثقل الدم... وإذا أضفت إلى ذلك طريقة وضع المساحيق الجمالية وتقليم الأظافر ووضع أحمر الشفاء، تنظر إلى هذه الوجوه والأجساد، وتسأل نفسك «من هي، من؟» كيف أميّز هذه عن تلك؟».

وبعد ذلك يأتيك التيار الإسلامي السياسي داعياً إلى حلول جذرية أكثر نجاعة للتجاذبات التي تحدثها موضة الغرب؛ ومفاد دعوته السكن في زمن خاص، عصره الذهبي... حيث يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول قد استوت. فهو لا يشك لحظة بأن رؤيته قد يعتريها اللبس: إذ يكفي، وحسب المعتدلين من أبنائه أن تستر المرأة كل العورات، ما عدا الوجه والكفين... ويكون جمهور المسلمات بذلك قد سلم من «جشع» وكفر بيوت الأزياء الغربية، المتحالفة مع أعتى أعداء الإسلام، أي الماسونية أو الشيوعية (وهذه الأخيرة خفّت الحدّة إزاءها بعد الذي حصل في كتلة أوروبا الشرقية)؛ وهكذا نكون قد انتهينا من الحيرة التي ابتليت بها نساء الشرق بسبب موضة الغرب. إلاّ أن نظرة سريعة جداً على جمهور لابسات الحجاب المتكاثر تستعيد بعض الملاحظات:

أولها تخص الملتزمات بالحجاب الإسلامي المسمّى «شرعياً»: فما لا ينتبه إليه جمهور هذه الفئة من النساء، هو أن ارتداءهن لهذا النمط من الحجاب هو، بجانب من جوانبه، رد على المنظومة الجمالية التي فرضها الغرب على الشرق. هو ردّ بالـ«اللحم الحي»، إذا جاز هذا التعبير، أي أن الجسد هنا هو حصنه وأداته في آن: ردّ لا يكتفي بإصابة الهوية السياسية لأهل الشرق، بل يتوغل في صميم التصوّر الذي تحمله نساء الشرق عن أنفسهن، عن صورتهن لهذه النفس، وانعكاسها على مظهرهن الخارجي؛ هذا على افتراض أن كل هذا الجمهور من النساء لبسن الحجاب الشرعي طواعية... مما يستدعي سؤالاً افتراضياً قوامه: ماذا لو لم يكن هناك هيمنة غربية على الشرق

منذ مئتي سنة، هل سيكون هناك تيار يدعو إلى هذه الدرجة من التشدّد بالحجاب الإسلامي يعطي لنبرته لهجة جديدة، بل ينقلب على الحجاب «التقليدي»، ويجدد صفة «الشرعية» لحجاب معاصر؟ أي بمعنى آخر: هل ستكون الهيئة الخارجية لجزء كبير من نساء الشرق كما هي عليه الآن؟ يقدّم نفسه باللباس «الشرعي» الإسلامي؟

ثانية هذه الملاحظات هي حول علامات الموضة الغربية المعتمدة لدى المحجّبات غير الملتزمات بأحزاب إسلامية، وهن يشكّلن الغالبية العظمى من نساء الشرق: فمن منا لم يلتق بمحجبة ترتدي بنطلوناً أو أقصر منه، أي برمودا (bermuda) أو تنورة ضيقة لا هي طويلة ولا هي قصيرة؟ ومن منا لم يلاحظ أثر التبرّج الغربي على وجوه هؤلاء المحجّبات، من أحمر الشفاه وظلال العيون والماسكارا.. إلخ؟ أو لم يتنشق عطور باريس القوية خلف كل هذا التستر؟

أما الملاحظة الأخيرة، فتدور حول وحدة الأزمان والمناطق الجغرافية الإسلامية. فبالإضافة إلى تنوّع الحجاب مع تنوّع البلاد المعنية، وربما المناطق في البلد الواحد، هناك موض عديدة للحجاب لم تنفلت من روحية الموضة ولا من وظائفها.

وبانتظار دراسات أكثر منهجية، سأحاول حصر بعض الموض الخاصة بالحجاب الإسلامي، والتي لم تخرج من زمانها الواقعي إلا لتدخل في سُبات الأزمان الغربية البعيدة:

- هناك حجاب أسميته «الهندي الأميركي»، يشدّ كل الوجه إلى الخلف بقماشة ذات لون واحد إجمالاً، وتضع صاحبته على رأسها رقيقة معدنية مزينة بأشكال مختلفة تلف الرأس مروراً بالجبين أو فوقه بقليل؛ هذا الحجاب المستوحى من هنود الأباش الأميركيين يعطي للعيون سحراً خاصاً، ويمنح للوجه جلالاً لا يضاهيه سوى هالة الوقار المنبعثة من صاحبته.
- هناك حجاب يمكن أيضاً، يا للصدفة، تسميته بالـ «أميركي»، ولكنه أميركي معاصر هذه المرة: يشبه القلنسوة التي كانت الأميركيات، خاصة ممثلات السينما، يلبسنه قبل الحمام أو بعده أو أثناء الغطس في البحر، وذلك حفاظاً على شعرهن. إنها طاقية تتجمع وسط الرأس الأمامي وتعطي لصاحبته شيئاً من «اللوك» (look) الحديث... بل تعطي أحياناً انطباعاً بأن ما تلبسه ليس بالحجاب.

- هناك الوشاح الكبير الذي يلف حدود الوجه لينتهي بربطة على هذا الجانب أو ذاك من الرأس؛ وإذا كانت لابسته صاحبة دلال، فهي تضع أحياناً على الربطة وردة صغير توحي، أيضاً، بشيء من اللوك... العائد، هذه المرة، إلى الخمسينات؛ لذلك أسميته «الحجاب الغجري».
- أغرب ما صادفته من حجاب هو قلنسوة أيضاً، لكنها مصمصمة بشيء من الاسترخاء وبقماش أعتقده حريرياً، ينتهي فوق مؤخرة الرأس بشكل كروي صغير. وأشهر من ارتدى تلك القلنسوة تاريخياً هي الملكة الفرنسية ماري - أنطوانيت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس عشر.

أما الجديد في عالم الحجاب الإلزامي، أي في البلاد التي ترغم نساءها على ارتدائه، فهو دخول بيوت الأزياء الغربية في صناعة وتصميم «الموضة بالحجاب»؛ كتلك المصممة الإيطالية التي حضرت خصيصاً إلى العربية السعودية لدراسة بيئتها «الاجتماعية والثقافية» بهدف تصميم ملابس مناسبة لهذه «البيئة». فكانت النتيجة، أن الملابس المصصمّمة لهذا الغرض هي مزيج مضحك من إرادة التحجّب والتستّر غير مقتنعة بنفسها، ورغبة جامحة، ولكن مضبوطة، بالكشف والإغراء. فالواضح أن المصمّمة الإيطالية لم تلبس حجاباً في حياتها، ولا اختنقت بقيظ الصحراء الخانق... كل ما فعلته أنها باعت، بثمن مرتفع على الأرجح، أفكاراً جاهزة حول الملابس، مثلها مثل «الخبير» الأجنبي الذي يأتي إلينا ليصمّم جسوراً وأبنية ومصانع، تنبىء، منذ مدماكها الأول، عن جهوزية تغريبية.

أشعر ببعض الحرج والتسرّع في محاولتي الخروج بنتيجة حول موضوع استبطان نساء الشرق لقيم الغرب الجمالية؛ ربما بسبب غياب الضابط الجمالي عندي أو الاستدلال المنهجي أو حتى الأيديولوجي. أطلقت العنان لبعض الصور المختزنة في مخيلتي وذاكرتي، وكتبت ما زعمت أنني شئت كتابته... أقول هذا لأنني أعلم وطأة الرقابة الذاتية على نفوسنا، وهي أشد إيغالاً مما نحاول اعتقاده أحياناً. إلاّأن الثابتة التي حكمت تفكيري في الموضوع هي أننا نحن نساء الشرق نطل على الدنيا بداية وكلنا فرح واهم بحرية أجسادنا...

ثم تأتي التفاصيل الصغيرة غير المُباح بها، بل التافهة أحياناً لتتراكم في أذهاننا وتوصلنا ونحن في أعمار حرية مفترضة إلى اكتشاف مدهش: فالموضة الغربية بشتى تعبيراتها صادرت أجسادنا ومخيلتنا وأخضعتها للعبة سرية نعرف العنوان الكبير

لأصحابها، ونجهل كل ما تبقى: آلية اللعبة، واللغة التي نستدلّ بها لوصف هذه الآلية...

وقد يكون مفيداً الخروج من هذه المقالة عند هذه النقطة من الوعي؛ فهي تدعونا إلى الاستغراق في أنفسنا، دون النرجسية المتداولة، المغرقة بسطحيتها، والمتشبّثة بصورة استقرت عليها، ولن تراجعها... استغراق متسلّح بما هو متوفّر من مقوّمات التثاقف: وأعني بالتثاقف هنا استنباط ما تحمله ثقافة الغرب من أدوات مفهومية ولغوية بغية استكشاف رغباتنا الجمالية. وهذه الأخيرة لن تكون عموماً سوى مزيج من ذواتنا العميقة وأشكال جمالية غربية، بعضها يلائم ملامح وجوهنا وتركيبة أجسادنا وبعضها الآخر لا يليق بهذه الوجوه والأجساد... ثم استعادة بعض الأذواق الجمالية الشرقية أثناء ذلك... وهو طبعاً مزيج يحسب لما بقي حيّاً من ثقافتنا، لطرق حياتنا وأنماط أنشطتنا بل ربما المناخ الذي يظلّل أيامنا، وكلها معطيات، لو جُمعت، لبان لنا كم نحن نحتاج إلى نزع الغربة عن مخيلتنا... بل كم نحن نستطيع ذلك... لو توقفنا برهة وتأملنا بمرايا ذواتنا البعيدة.

EXPATRIATES & LOCALS: COMMON PERCEPTIONS OF FOREIGN DEVELOPMENT «EXPERTS»

Lina Abou-Habib Traboulsi

«... In order for you to influence the local [Lebanese] scene and impress the authorities, visits of a British staff member will be imperative.» (Personal written communication, 1996).

In 1996, a Lebanese human rights activist wrote to me soliciting the support of the international NGO for which I worked for the cause of a particularly vulnerable community of women in Lebanon. As I was getting further acquainted with the situation and with those involved, I slowly realised that in the eyes of the person with whom I was communicating, I was simply a link, a trampoline to the «other side,» more specifically to Europe where my organisation is headquartered. I only needed to be mobilised for the cause of this community to the extent that I would be able and willing to communicate facts and observations to Europe and thus entice «superiors,» by and large thought to be Europeans, to come over «and see the situation for themselves.» As indicated in the quotation above, the visit of a European was considered far more valuable that whatever a «local» frontline development worker could contribute. Though apparently innocent and well-in-

tentioned, such an attitude and perception appears to be based on a number of fundamental assumptions of the beliefs, attitudes, and ethics of Westerners involved in development.

Firstly, this attitude appears to view a «local» development worker to be at best ineffectual, and at worst not very interested, both at the personal and professional levels, in the plight of oppressed women. Secondly, the attitude implies that «locals» have by definition a very insignificant remit and discretion to act and take decisions without the consent and approval of their Western superiors. Thirdly, it reflects an overall view of the «locals» having far less commitment, or social and political clout, to be able to influence any local development process positively.

Based on personal experiences, and on discussions and interactions with fellow «local» and «expatriate» development workers, this short paper will try to explore the views and perceptions which have been developed of what constitutes the «West» and «Westerners» within the specific world of «development» in Lebanon. Though defining «development» is surely beyond the scope of this paper, I will however point out that for our purpose, «development work» and «development agencies» shall be used to refer to those local or international humanitarian and non-profit organisations involved in punctual or long-term interventions aiming at relieving suffering and improving the conditions, well-being, and position of the less-advantaged communities.

The paper is therefore set against the «development» scene in Lebanon from the early eighties to the present day. It is very much inspired by the author's knowledge, experience and value judgement, and draws very little from empirical research. In fact, empirical studies on the «culture» and perception of «the West» as mediated by international development agencies operating in the «South» (meaning here the Southern part of the hemisphere) has yet to be developed in this part of the world, and especially in Lebanon.

It is hoped that throught this contribution, the reader will question her/his assumptions of the West even if only by tackling this questioning through the narrow angle of international development and development agencies as mediators of «images of foreign culture.»

A Profile of Development Workers & Development Experts

It is common knowledge that during the gory years of the Lebanese civil war, the number, presence and activity of foreign aid agencies mushroomed. In general, and notwithstanding certain exceptions, the senior staff of these organisations were largely Western nationals. Since then, many international and local agencies imported foreign expertise in the form of consultants, advisors, and technical experts in the fields of emergency and relief, health, education, etc. In general, then, one can speak of a community of expatriates within the development scene in Lebanon.

In the mid-eighties, and with the emergence and consequent increase of the «hostage syndrome» whereby numerous expatriates from the West were taken hostage, the number and presence of Westerners began to decline steadily. Those who were residents in Lebanon and held senior management and administrative posts in their respective countries were gradually replaced by «locals». Furthermore, the reliance on foreign technical expertise also declined with the increased risk of hostage taking. This pattern was also to be seen within local academic institutions and even in the corporate world, where the contribution of Western know-how and expertise was substantial.

The changing profile of personnel within international development agencies, particularly at the senior level, brought with it a number of substantive institutional changes, the analysis of which is beyond the scope of this paper, particularly in the absence of empirical research on this subject. However, and judging from the perceptions expressed both internally within such institutions and externally by their interlocutors, an overall impression was built on what looked like a change in the «organisational culture.» I group under «organisational culture» issues such as internal dynamics, decision making

processes, ways of working («this is the way we do things around here»), manifestations and expressions of hierarchies, gender relations, leadership styles, and so on.

This situation gave rise to numerous interpretations which very much depended on local perceptions of what foreign/ Western personnel brought in from their «own cultures» to the local setting. For example, where foreign/Western personnel were perceived to be easy-going and friendly, their local substitutes were judged to be too strict and hierarchical. In addition, this process also resulted in the creation of two pools of what I will arbitrarily call «winners» and «losers» depending on their relative location vis-à-vis Western development workers and their «local» successors.

Perceptions of the impact of the forced absence and withdrawal of Western development and relief experts and personnel thus varied according to these two rough (and consequently untested) categories. For winners, «foreign experts» were considered to be «intrusive», less versed in «local customs, traditions, and culture», and had little ability to understand and address local needs. For «losers» on the other hand, who viewed the past as the «good old days» the expatriates were often referred to with nostalgia. These were the days when management and decision making were smoother, impartial, and perceived to be far more «professional.»

In both cases, the perception of Westerners very much reflected a view of Western «culture» as being different, alien to, and incompatible with, local «culture». This incompatibility was often amplified by the inability of Westerners to understand and appreciate local dynamics, politics and sensitivities.

However, and in both cases, perceptions of Westerners in this specific context and situation appear to be categorical and generalised. All Westerners were either wise and honest, or, on the other hand, naive and too liberal. With this in mind, it would have been interesting to probe in further depth the images and information which shaped

such perceptions. In fact, these perceptions can be characterised by either a fear and apprehension of the Other and what that Other represents as a sum total of what constitutes his or her culture, or, on the opposite extreme, an ill-justified beatification of the Other who appears to be more privileged, at least materially, than us, and from whose privileges we might ultimately benefit. Though these perceptions of development workers from the West are by and large contradictory, their common denominator is that they are all based on ignorance and on a poor perception and understanding of Western culture and the way it is transmitted and mediated by individuals.

At this point, and despite the use of the term «culture» all too often as a reference and linchpin, defining what constitutes «culture» is a far more complex matter. Again, probing individuals within what we loosely refer to as the «development circle or scene», we can see that to some extent the term «culture» is often used as a «portmanteau» to include relatively objective characteristics, such as ways of thinking, feeling, behaving, and relating to others. It seems that in general, «culture» whether local or Western, is perceived to be homogeneous, rigid, and little prone to change and transformation.

Stereotypes of Western Development Experts:

The stereotypes I shall describe here are drawn from personal experience and encounters with individuals in the development field. They are by no means comprehensive or judgmental. At the same time, they are not insignificant, as they partially represent and influence local interactions and interface with international development agencies, and inevitably have an impact at the concrete levels of programme planning and execution, and thus on the lives of local women and men. Yet again, what is striking in these stereotypes is the extent to which they are contradictory and categorical, leaving little room for nuances or questions. The extent of the rigidity of these stereotypes is in itself an indication of our own mindsets, and is unfortunately reminiscent of equally offensive gender and racist stereotypes, whether they reflect positive or negative attitudes vis-à-vis the other.

«They are foreigners and cannot understand our culture.»

Many of us have often encountered this stereotype, especially if our chief area of work and of personal interest and commitment centers around gender and development. Hostility vis-à-vis development initiatives aiming at challenging unequal gender relations has often been explained by the fact that this concept is a «Western» import, and the Western expert is in fact the importing vehicle whose chief aim is to destroy local family values by bringing an «inauthentic» and foreign culture. Explaining just exactly what is «authentic» and what is not is indeed a mind boggling exercise. It remains true, however, that those who cling so strongly to a perception of the Western expert as one who is keen on destroying local and authentic family values by liberating local women, often forget that many aspects of Western culture (especially at various organisational levels) are largely partriarchal and unconducive to equal and fair gender relations. In fact, many of us have often complained that behind the excuse of being liberal and respectful of local cultures, customs, and traditions, some Western agencies have indeed failed to position gender equality at the heart of the development process and as a condition *sine qua non* for support.

«They are overpaid Western consultants.»

Indeed, there are numerous cases of Western consultants being paid exorbitant fees regardless of the importance of their task or the quality of their output. However, the issue at stake appears to be in this case the perceived discrepancy in valuing the work and input of Western development consultants in comparison to their local peers. Professional competiton - and, dare I note? envy - seems to be at the root of such very common statements. Indeed, the rather high international market rates paid to Western consultants (especially when compared to the avarage earning of local development personnel) seem to have propelled sky high the status of Westerners engaged in this lucrative activity. The overwhelming stereotype of Western development experts being overpaid is propably coupled with and exacerbated by the belated realisation that the prohibitive cost of forgein expertise and

consultants is often part and parcel of aid packages to Lebanon.

«They are in fact spies disguised as development experts»

Many of us have often failed to understand the motivation behind a Westerner's interest in understanding and often supporting the various social causes of local communities. Expressions of solidarity across continental barriers seem to be difficult to understand, thus making the «plot theory» a most attractive, though poorly substantiated, explanation. When a Western expert is involved in some form of assessment or evaluation, which requires the gathering of appropriate data, this is bound to be explained as serving the subversive purpose of some obscure and evil power. Being associated with a Western agency, involved albeit to a limited degree, I have often been asked about «the real (and therefore unrevealed) purpose» for such interest in supporting desk and empirical research.

«They are putting their nose where it does not belong.»

It is indeed challenging, especially in the absence of research, to justify this perception of Western experts getting involved in matters which do not concern them. I cite here a vivid example of a local researcher who upon looking at a recent publication on Arab women written by mostly Western women academics, retorted with great anger: «When will these Westerners stop writing about us!» It is difficult to understand here why and how «exclusivity», professional interest, and development and academic involvement are determined, and by whom.

I would like to add here that this particular attitude is especially encountered in situations where foreign/Western experts are involved in development initiatives aiming at changing existing gender roles and relations. Where such an essential bastion of patriarchy and power distribution is challenged, the issue of incompatible cultures and defence of local virtue and morality seems to emerge. Oddly enough, even local development workers face a similar attitude when working for gender equality. Mukhopadhyay (1995) reports on how local women activists in India are criticised for being «Westernised»

and for daring to «violate local traditions.» In such a case, and regardless of nationality, the intruder is any person who disagrees with, or seeks to change, the relations of power and gender as embodied in a given «local culture.»

Compared to the above rather negative and often offensive stereotypes and perceptions, we tend to find other extremist viewpoints which, on the contrary, place Western experts on a pedestal and endow them with ultimate wisdom, knowledge, impartiality and maturity. Without going into as much detail as above, I shall refer here to commonly encountered situations where foreign/ Western experts are thought to know more about everything. Thus, their judgement, opinions and recommendations are executed meticulously. In other equally common cases, they inspire a certain «blind trust», as, unlike their local counterparts, they are thought to be free of any personal or political motive, or of any other allegiance than that to the task at hand.

These two very rough categories of positive stereoptycal perceptions are equally unconducive to constructive dialogue, exchange of ideas, and fruitful and objective interaction with the Other. In real life, this means that ideas, suggestions, or instructions are accepted from Western experts without questioning and discussion, as they are perceived to come from a higher intellectual authority than that enjoyed by local workers.

We certainly have a long way to go before we actually come to challenge our perceptions of Western experts in development, and before we develop as a result a fairer and more objective view of them, as well as a mechanism for egalitarian communication and interaction.

Concluding Notes:

In challenging patterns of racism and prejudice often prevailing amongst certain categories of «Westerners,» many have often cautioned against «homogeneous» and blanket images and stereotypes. We have often rejected concepts embodied in such all-inclusive terminology as «the Arabs», «the Arab woman», «Muslims», etc. Those of

us who share feminists ideals and commitments have challenged the all too common usage of «a woman» (in singular form) to describe all women of the world or even all women in a given context. We have strongly argued for the more truthful usage of «women» to indicate the valid and rich differences which exist between women, and to acknowledge and celebrate diversity amongst women.

Yet, we seem to have developed similar blanket statements, concepts and perceptions about «Europeans», «Americans», and «Westerners» often ignoring the extent to which the West is indeed «multicultural» and diverse, and therefore provides a multitude of complex and often conflicting trends of thoughts, attitudes and behaviour. In fact, our perception of «Westerners» being big, blond, blue-eyed, educated, Christian, mild-mannered, straight, middle class males, can hardly describe the reality of the streets of London, Amsterdam or New York!

I would like to point out that in studying images and perceptions of Westerners, one should be aware of the fact that the «development scene» as such is peculiar to itself. Many of the patterns and stereotypes described above may not be as applicable, or as of the same importance, to the «corporate world» which today is attracting an increasing number of Western residents or visitors to Lebanon. We certainly seem to be less apprehensive or suspicious of Western business people than we are of Western development experts. Could it be that the motivation for increasing material profit and expanding markets is considered more legitimate and acceptable than improving the welfare and well-being of the poor, or of empowering women?

Bibliography:

Ishemo, S., "Culture, Liberation, and Development" in Development and Social Diversity, a Development in Practice Reader, Oxfam GB publication, 1996.

Mukhopaday, M. "Gender Relations, Development, and Culture", in Gender and Development, vol.3, no.1, 1996,

Powell, M., Culture: Intervention or Solidarity? in Development in Practice, vol.5, no.3, 1996.

الحليف السرّي

أنيسة الأمين

I - إنتماء لغوي

في مدينة جنوبية بعيدة، كانت البنت في الصف الثالث تكميلي في مدرسة رسمية، تكتب مواضيع الإنشاء العربية التي تصل صفحاتها إلى الثلاثين، وتشعر بزهو خفي عندما يتم الاحتفال بهذه المواضيع في جميع مدارس المدينة. كان لها شأن عفوي مع اللغة العربية، لا هو صنعة ولا معرفة بالقواعد، إنما أمر تشرَّبته مع الحب الأسري الذي كبرت عبره.

أتت إلى العاصمة، لتدخل دار المعلمين والمعلمات، وحيدة تخترق حدود التراتب الجغرافي والمذهبي من بين أربعين مرشحاً تقدموا من أمكنة الجنوب المتناثرة... المدينة ضخمة والغربة ثقيلة ومعلمة اللغة الفرنسية شرسة قاسية، تتكلم بسرعة هائلة، لكلماتها إيقاع لا يشبه الكلمات التي تعرفها البنت في الكتب، إنها تحكي بطلاقة، بنغمة، تروح وتجيء في الصف، تحاور من يجيبها وتشجعه، وتنسى كليةً البنت الصامتة التي لا تفقه شيئاً مما تسمعه. لم يكن أمامها سوى الحفظ والمذاكرة لتنجو بنفسها، وأصابتها قشعريرة مقلقة ملفعة بغمامة سوداء. كثيراً ما كانت تعالجها بالاجتهاد، ولكنها كانت تشعر بشيءٍ أقوى منها، منفصل عنها، يفلت أكثر الأحيان كلما اصطنعت الاقتراب منه.

في السنة الثالثة في دار المعلمين والمعلمات،

كانت البنت المستوحدة، تحضر البكالوريا (القسم الأوّل)، وتتقدّم للامتحان بطلبٍ حر، وترسب بمادة الأدب الفرنسي. إن هذه المادة عصية على الفهم، فمع كل اجتهادها، بقيت هذه اللغة أقوى منها ويجب أن تجابهها، من حزيران إلى تشرين موعد تقديم امتحانات الإكمال، ثابرت الصبيّة على مباشرة الدرس من الخامسة صباحاً، حيث تصعد إلى سطح بيت جدتها الذي تلامس حافته حقل التبغ المجاور ولا تنزل إلى ساحة الدار إلاّ بعد أن تقسو الشمس، وتقسم بقية نهارها بين السطح والدار والقبو المعتم حتى الحادية عشرة ليلاً وهي تستظهر دروس الأدب الفرنسي بصوت عالٍ كي تسمع نفسها تلفظ الجمل الفرنسية، استطاعت في امتحانات الإكمال أن تسجل درجة متقدمة جداً في الدورة الرسمية الثانية.

في امتحانات شهادة الفلسفة التي استظهرت موادها أيضاً بين السطح والدار والقبو المعتم، كانت علاماتها في مادة الفلسفة الفرنسية أعلى من علاماتها في مادة الفلسفة العربية. لقد فهمت تلك المرة أشياء كثيرة مما كانت تدرسه، ولكنها، حتى الآن لم تفهم شيئاً من تهافت الغزالي وفلسفة ابن سينا. كان درس La Volonté بالفرنسية أهم لديها من النص العظيم «حي بن يقظان» لابن طفيل.

إبتدأت تدريجياً، وبشكل غامض، تشعر أنها تقترب عبر اللغة الفرنسية من صورة تشبه شيئاً ما يتململ في داخلها، ولكنه فالت من أي إرصان أو تبلُّر... لم تتمتع يوماً بالاستماع إلى أغاني محمد عبد الوهاب، أم كلثوم أو عبد الحليم حافظ، بالمقابل كانت مبهورة بأغاني داليدا وأديث بياف، وكانت ترى أن صوت أديث بياف يخرج من مكانٍ ما في أحشائها، من كينونتها، من جوانيتها، وهي لا تحتمل لغة الألم والأنين المتكرر الذي يتردّد في أغاني المطربين العرب.

كلما أرادت أن تتعرف على شيء ما فيها، كانت تقترب أكثر من كل ما هو فرنسي، غربي، وبدأت تشعر أنها تبتعد شيئاً فشيئاً عن هواها في الكتابة بالعربية، وهي تعرف اليوم أنها لم تقرأ كتاباً في الدين أو الفقه أو السياسة، ولا في التاريخ الذي كرهته كرهاً شديداً ولا في الجغرافيا التي كانت تثير فيها شجن الترحل والهجرات... وكانت دون أن تدري تنقطع تدريجياً عن ثقافتها ولغتها.

أمام لحظات اختيار الاختصاص الجامعي، لم تتردد لحظة واحدة، ففي الوقت الذي ذهبت فيه رفيقاتها إلى اختصاصات مألوفة، قالت هي بلهجة قاطعة وحازمة: «سوف أذهب إلى مادة علمية، وباللغة الفرنسية، سوف أتخصص في علم النفس... إن

الجميع في عائلتي يدرسون الأدب والشعر واللغة والقواعد، وأنا أريد غير ذلك...».

تريد الصبية توكيد ذاتها، بالتمرد على أعراف العائلة وتراثها وشهرتها المعروفة باللغة والأدب والشعر والفقه. تريد مجابهة ما هو أقوى منها، ما يتحدى منبتها وإنتماءها وإعدادها، تريد الدخول إلى اختصاص عليه هالة كبيرة من السحر والغموض.

في السنة الأولى في الجامعة، التي كانت تسمى «الثقافة العامة» كان أستاذ الفرنسي، رحمه الله، الذي يعطي مادة الترجمة والتعريب يتداول نصاً عن أحد الخلفاء المسلمين، وفي شرحه للنص، حوّل الخليفة إلى مسخرة ومهزلة، وشعرت بإهانة لم يحصل أن شعرت بها من قبل، تركت الصف وقاطعت محاضراته في حمية فاجأتها نفسها بها، وكانت النتيجة أن رسبت في هذه المواد التي كان الأستاذ بارعاً فيها، على ما كانت تسمع، ولكن امتحانات الإكمال ليست بعيدة: ثلاثة أشهر مكثت فيها الصبية، في غرفة مقفلة وقد جمعت كل المصادر والمراجع وجلست تعمل بدأب كمن **يقرر مصيره**، وحصلت في امتحانات تشرين على المرتبة الأولى، **كأن هذه اللغة هي مطرح التحدي والمجابهة وتوكيد الذات وإشهار القوة...** فقط اللغة الفرنسية، تتعاطى معها سراً وحدها، كأنها صورة لآخر، لحليف خفي تسقط عليه دوافع ونوازع عصية على الضبط والجهر، **إنه آخر، تعيش معه وعبره ثورة، تمرداً.** هي لحظات مراهقة تعجز أن تصل إلى أقصاها... إنه آخر له لغة لا تشبه كلمات الناس، ولا تشبه كلمات والدها التي كان يكتبها لها في رسائله، من مهجره البعيد، كلمات الوالد ترشح فخراً ومجداً وعنفواناً، ترشح قوة وثورة وتغييراً.

هو، الجنوبي الثائر، إبن العائلة العريقة، يتقن التعبير، ينحت أحاسيسه وانفعالاته وطموحاته شعراً وكلمات مقفاة، كلماته بيانات ثورية قاطعة لا جدال فيها ولا تراجع، يكتبها لابنته التي ارتشفت روحه وطموحه. تواطأ الأب والابنة على الاختراق والاعتراض؛ كان فخوراً بها وهي تتعجل السير بخطوات حثيثة لا تحتمل الانتظار.

في السنة الجامعية الثالثة، كان التدريس ما زال باللغة الفرنسية، وكان يجب أن تقدم exposé، لا تذكر اليوم موضوعه، ولكنه كان في مادة صعبة اسمها Méthodologie، تتذكر أنها كانت أصعب اللحظات، فلغة علم النفس ومفرداته ومفاهيمه هي عالم مختلف، ليس له إسقاطات لا في حياتها اليومية، ولا في اللغة

المتداولة ولا في القراءات المألوفة، إنه مجال فكري ومعرفي ومفاهيمي من دون مرايا في بيئتها، والبحث الذي كان يجب تقديمه بالفرنسية، هو ليس فقط في علم النفس، إنما في معادلاته التي تقتضي عمليات في التحليل والتوليف والتركيب. وقدمت الطالبة الجامعية son exposé، واندهشت اندهاشاً عظيماً من تثمين الأستاذة للعمل، ولكنها حتى الآن، لا تعرف ما الذي حبكته وفبركته في ذلك الـ exposé.

منذ ذلك الحين، بدأت تدرك أن اللغة شيء ما يتجاوز استظهارها لها.. **اللغة نسق ثقافي كامل** ... اللغة الفرنسية هي فرنسا، ثورة وحداثة وقيماً... العالم الآخر الذي لا يمت بشيء إلى عالمها، وهي تريد **توكيد ذاتها عبر هذا الإنتماء المستحيل، تريد التمرد باستعارة لغة الغرب**، الصورة المغايرة حيث لم تتوقف لحظة عن اعتبار نفسها امرأة تشبه ما هو هناك. ولم يكن يخطر ببالها أن تقارن نفسها بمن هن أمامها أو قبالتها، أو بمن يرجعن إلى الثقافة العربية كشعار لدخولهن إلى المجتمع.

كانت صدمتها كبيرة، مرة، عندما أتت بنات الـ Ecole des Lettres، لينجزن في صفها، وفي الجامعة اللبنانية إحدى الشهادات، حيث تم التعاون يومها بين المركزين، ولدهشتها نظرت إلى بنات الـ Ecole des Lettres، استمعت إليهن ورأت أشكالهن، وعرفت أنها لا تشبههن، أنهن يتكلمن بشكل آخر، يلبسن بشكل آخر، مما أثار حفيظتها وغيرتها، ولكنها لم تفهم سوى أنهن يشبهن الغرب أكثر منها.

أنهت الإجازة، وكانت متزوجة وصارت أماً، ونسيت علم النفس، ونسيت الجامعة، ولكنها لم تستطع الدخول إلى ملاك التعليم الثانوي كي تشعر أن لإجازتها معنى، بقيت في التعليم الإبتدائي تُدَرِّسُ اللغة الفرنسية والعلوم في الصفوف التكميلية. وبعد تسع سنوات من ضجر الانتظار كانت الحرب قد ابتدأت وقررت معاودة الدراسة، فذهبت وانتسبت إلى قسم اللغة الفرنسية، وأخذتْ تداوم مثل طالبة مبتدئة، وبعد شهر شعرت أنها ليست في مطرحها، وأن زملاء الصف هم شباب وصبايا صغار يتقنون الحفظ والاستظهار وهي، كانت الحياة قد رمتها في خفوت المعنى، ودفعتها مرغمة إلى طرح الأسئلة الكبيرة المحتقنة في أتون الذات، وشكت أمرها إلى أستاذة اللغة الفرنسية، التي نصحتها آنذاك بترك قسم الفرنسي ومتابعة الدراسة العليا في علم النفس. وكأن كلمة الأستاذة كانت جمرة وقعت على هشيم يابس اشتعل ودفع بها إلى باريس، **هناك تعرَّت الأسئلة من أقنعتها: المرأة، الذات، المعنى!**

كانت الحرب قد بدأت تأكل الصروح الفكرية، وبدأت كلمات الوالد التي رسمت كيانها تتساقط حروفها مع كل قذيفة تنفجر... وهي تزداد دخولاً في دوامة الأسئلة المستحيلة تذهب باحثة عن الإجابات عليها في باريس السابعة التي حفظت ممراتها وحجراتها ووجوه موظفيها، كما يحفظ الإنسان علامات بيته وحيه. **كانت الإجابات هناك، ساطعة، قوية، يهتز لها كيانها، إجابات تأتي من عالم يصعب عندها قياس بعده وقربه**، لأن له صوراً تنطبع في جوانيتها، كل مرة تعنف فيها الخضات التي يحتقن بها الجلد، وتختنق بها الروح، صديق يفتح نوافذ للهواء، يوسع مطرحاً بين كلماته لحاملي الأسئلة المكتومة والمعلنة، اعتبرها ذاتاً لها الحق بالألم والرغبة، بالرفض والتحقق، إنه حليف في الحلو وفي المر للذات الباحثة عن صورتها، إنه الحليف الوحيد الذي كان يناديها، إنه الغريب الذي يتواطأ مع غربة الصوت الأخرس الصاعد من مطارحها المنسية، الحليف الغريب الذي طالما بقيت مقصرة عن الوصول إلى ملاقاته... كان حراً وقوياً أكثر بكثير من أن تستطيع ملامسة أفق الحرية الذي كان ينشره فوق رأسها.

* * *

II - لغة تولد

عندما ابتدأت دراستها العليا، انزلقت في مسار لم تكن تدري إلى أين هي ذاهبة فيه، ولا إلى أين سوف تصل، اشتغلت على أسئلتها الكبيرة، وكان حليفها نظريات التحليل النفسي والمفاهيم الفرويدية. إختارت عينة تشبهها، وتشبثت بفرضيات مفادها أنها هي (والعينة طبعاً) يتمتعن بدرجة عالية من الوعي، ومرجعياتهن غربية، لأنهن محدثات (من حداثة)، وأنهن رافضات لمرجعياتهن التقليدية، وأنهن الصور الجديدة للمرأة... الغرب قبلتهن، والحداثة دربهن.

كانت كلمات فرويد في نصوصه التي حفظتها غيباً، مثل الآيات المقدسة، مسلمات لا نزاع عليها. قرأت النسويات ونقدهن للفرويدية وإيديولوجيتها الذكورية، ولكنها لم تصدقهن، بل احتقرت صراخهن، فهي، ومن حيث لا تدري، لم تعط يوماً وزناً لمعرفة امرأة، كانت المرأة بالنسبة لها، كما بالنسبة لفرويد، كما بالنسبة لكل الآباء الذين كانت شديدة الاحترام لهم، كائناً ناقصاً. لم تنظر يوماً إلى أمها نظرة تقدير، كان الوالد هو الصورة الأولى والأخيرة، وكان الآباء، المعلمون، هناك في

الغرب، صورة للآباء، كان هناك جهاز واحد مبرمج في جوانيتها وفي عقلها يقوم بالتلقي والتعامل. ما يقوله آباء الفكر والمعرفة هو الحقيقة، هو العلم. اجتهدت في بداية الرسالة بحثاً عن المرأة الواعية «الجديدة»، لتكتشف في نهاية الرسالة أن المرأة التي تبحث عن صورتها الحديثة، المرأة الواعية ليست امرأة أخرى، لقد خرجت من تحت مبضع المرجعية الفرويدية كائناً محكوماً بآلية المجتمع وطوقه، كائناً يخرج إلى المظاهرات، يدرس في الجامعات، يجتاح المؤسسات ليس تحقيقاً للذات، إنما دفاعاً عن أب مقهور، عن اسم الأب، واسم الطائفة واسم الجماعة واسم العائلة.

كتبت خمسماية صفحة، وبالفرنسية، لتقول في نهاية الأمر، إن هذه المرأة الصاعدة باتجاه الحداثة الغربية، هي امرأة محمولة بواسطة الريح. سوف تقع ضحية وتتكسر على جدران الإحساس بالإثم لأنها انتهكت قيم مجتمعها، انتهكت قانون الأب الذي تحمل اسمه... لم تربكها هذه النتيجة في البدء، كانت الخلاصة المنطقية للعدة المفاهيمية ولأداة القياس التي استعملتها، حتى أن أستاذة مادة القياس احتفلت بها في لقاء عالمي في باريس لشرح هذه النتيجة؛ ولتبيان ما برهنته هذه اللبنانية في استعمالها لذاك الاختبار، من إعطاء وزن لاسم الأب ومكانة الأب. وإذا بخمس سنوات من العمل في الدراسة العليا، ومن التنقيب تحت الجلد، وفي العينين وفي الثوب وفي البدن، تنتهي لتقول لها: عودي أيتها الغريرة إلى بيتك. فالغرب غرب، والشرق شرق، **والقياس مستحيل بينك وبينه، وحليفك ملتبس الوجه**، يغريك ويرميك، **إنه رفيق لحظات**، وها هي نفسك تحاسبك على انتهاك ثقافتك وبيئتك... نهشها الإثم... ولم تكتب شيئاً عما درسته واشتغلته بحثاً عن المعنى... ذلك المعنى الذي خرج ملكاً من أفواه الآباء والمرجعيات.. هنا مرجعيات الانتماء، وهناك مرجعيات الفكر، **كلهم آباء**، وهي يلتبس عليها الأمر بين المرجعية الفكرية والانتماء الاجتماعي... تعاطت مع المعرفة الأبوية الفرويدية بنفس طريقة الإذعان والقبول التي أسسها فيها الوالد.

ظنت، بعد هذا المسار، أنها عرفت المرأة، وعرفت الرجل، عرفت السياسة التي تحاك بها المصائر، فتراجعت نحو الصمت، وأخذ المعنى ينزلق يومياً من بين يديها، تداويه بالعمل الذي لا يتوقف.

لم يتوقف الغرب لديها كونه صورة للمرجعية المعرفية، كانت تقرأ بالفرنسية وتُدَرِّس بالعربية، لم تثق يوماً بمرجع معرفي نفساني باللغة العربية. وكان الجهد كبيراً لتحييد ذاتها من الدخول في السجال حول المعنى... معنى أن تكون امرأة عارفة،

وبدأت تتراجع عن الكتابة والبحث وإرصان القول، فالمعنى فالت، والآباء قالوا كلمتهم، وأناها ذاقت ذل الخضوع وتفاهة القبول، وبدأت حداداً على الذات، كانت السنوات فيه تحسب بالدقائق والثواني، كأن المعنى الذي مات فيها، قد أخذ منها كل موضوعات الهوى الذي كان يحركها وكاد الصراخ الذي يبقى أبكما في داخلها أن يذهب بها إلى الحزن النهائي ومرة أخرى استجارت بحليفها ذي الوجه المتجاذب والمتناقض: الغرب، ذهبت إليه هذه المرة من بوابته الأضيق، من العلاج بالتحليل النفسي حيث فكفكة للبنى النفسية واستعادة للمكبوت... وبدأت خطواتها تسير باتجاه الذات الأنثوية فيها، لغة الأنثى، اللقاء بالأنثى: أما، صديقة، أختا، باحثة، كاتبة، لغة، نصاً. حيث اكتشفت أن الأنثى العارفة لم تقف عند حدود التمرد وتوكيد الذات وتحقيق الذات، إنما ابتدأت بنقد مسلمات الآباء، بنقد البداهة، قادها هذا الحليف الغريب إلى اللقاء بنصوص صديقاتها اللواتي ابتدأن بتأسيس معرفة ومفاهيم مغايرة، عبر اطلاعهن على النسويات الغربيات واكتشفت متأخرة جداً أن أمهات الكتب والمراجع الغربية التي تكدست في خلايا دماغها ملوثة بانحراف أبوي ذكوري أحادي الوجه... واجتاحها الحزن، لأنها صدقت كثيراً، صدقت الآباء، عمر طويل وهي تصدق، أركنت الغرب وحداثته في صورة الوالد الذي يرسم جلدها ولونها واسمها بنور كلماته.

لم يكن يكفي أن تدرك كل ذلك بعقلها، كان يجب أن تستعيد تلك الأمكنة المسلوبة في كيانها وفي بدنها. وكم تنسل الأجساد والأرواح من ساكنيها وتركن إلى التكوين البدئي وتتصلّب. يجب استعادة تلك الأمكنة الفالتة لتلتئم متصالحة مع بعضها في مسارٍ آخر، مسار يؤدي إلى لغة مغايرة، هي لغة الذات.

لغة الذات، تعرف أن الثقافة الأم هي مطرح لا تقفز عنه ولا ترفضه.

لغة الذات، تعرف أن جنس الكائن هو مطرح آخر لا يؤدي تجاوزه إلاّ إلى الإنحراف اللغوي والمعرفي والمفاهيمي والكينوني.

لغة الذات، تعرف أن صور الغرب المعرفية لا يمكن تجاوزها لأنها مطرح الخلق والتجديد في العلم وفي الثقافة.

عندما أدركت، أنها هي الذات المتخففة من المرجعيات ومن صورها، أصبحت قادرة على أن يكون لها لغتها الخاصة بها. لحظة امتلكت لغتها، لم يعد الغرب

صورة ولا مرجعية ولا سطوة، إنه لغة أخرى، نسقٌ رمزيٌّ آخر.

لم يعد الشرق بالنسبة لها صورة ولا مرجعية، إنما أيضاً لغةٌ مغايرةٌ لنسقٍ رمزيٍّ آخر...

وجدت بعد كل ذلك، أن فكرة الصورة المرجعية هي مقام مناسب فقط للجموع الذاهبة إلى حيث يريد الراعي... إنها مقام للغة خاصة يمتنع عليها فهم لغة الآخر: حضارة كانت تلك اللغة أم جنساً، وهذا أيضاً ما علمها إياه حليفها السري، الملتبس الوجه، ذو الصورة المتجاذبة إلى أقصى الحدود لأنه صورة مرجعية... وهذا دأب أية مرجعية تحميك وتسلب حريتك فتدخلك في المحاكاة وتفقدك الأصالة...

فسلام عليك يا مرجعيات!

تجربتي مع الغرب: مقتطفات من المعرفة والحبّ والحرب

رجاء نعمة

اللقاء الأول: عام الخبز الأبيض والهجرة

بدأت تجربتي مع الغرب في زمن سابق على التجربة وفي مكان بعيد عن الجزء الشمالي من القارة. كان ذلك عام ١٩١٨ وحين وضعت الحرب العالمية أوزارها ودخلت جيوش الحلفاء إلى المدن اللبنانية، وصار جنودها يتجوّلون في الشوارع تجوّل المنقذين ويتقرّبون من الأطفال ويوزعون عليهم الحلوى والبسكويت... وكانت أمي من بين هؤلاء الصغار. كانت على ما يبدو سعيدة وكان الناس أيضاً سعداء باستقبال الفاتح العادل المتمدّن الذي جاء يحرّرهم من جور الدولة العثمانية. «الدولة الظالمة البالية» التي بسطت سلطانها الغاشم على العالم العربي أكثر من أربعمائة سنة توّجتها بإعدام عدد من المناضلين في سوريا ولبنان على يد أحمد باشا الجزار في أوائل العصر.

كلّما حكت أمي عن انتهاء عهد وبدء آخر اغرورقت عيناها بالدمع. وذكرت أنهم منذ ذلك الوقت بدأوا يأكلون الخبز الأبيض بدل الأسمر وأنها هي نفسها بدأت بالذهاب إلى المدرسة لتتعلم اللغة العربية وشيئاً من الفرنسية. وظلّت فيها إلى أن تزوّجت أبي.

في ذلك العام، عام الخبز الأبيض إذا صحّ القول، عادت البواخر غير الحربية تمخر المحيطات والبحار لتمرّ واحدة منها بسواحل لبنان فتحمل من سكانه من كان لديه القدر الكافي

من الحلم والطموح والمغامرة للهجرة إلى القارة الحديثة التي منذ القرن الماضي والناس يتناقلون أخبار مَن هاجر إليها. ركب أبي الباخرة مع غيره من سكان بلاد الشام. لم يكن أتمَّ عامه الثامن عشر ولم تكن الشجاعة تنقصه كما لم تكن الحرب قد تركته بالطبع طريّ العود ليحجم عن مثل هذه المغامرة ويلحق بأخيه الأكبر، عمي، الذي سبقه إلى أمريكا قبل الحرب. ركب الباخرة أسوة بالمهاجرين متفقاً معهم على الوسيلة مختلفاً في الهدف. فمنذ البدء لم تكن الهجرة هدفه بل إعادة أخيه المهاجر إلى الوطن كان الهدف.

لم يكن يعرف أخاه بالمعنى الحقيقي. بالكاد كان يتذكر وجهه. وحين رست الباخرة في مرفأ مرسيليا نزل أبي منها ليمكث فيها شهوراً طويلة. كان السبب في ذلك أن الباخرة ألغت موعدها. مما دفع ببعض المهاجرين إلى تغيير طريقهم والذهاب إلى أفريقيا الغربية بدل أمريكا. وعبثاً حاولوا إقناع أبي بأن يحذو حذوهم.

ونظراً لصغر سن أبي آنذاك وصعوبات الوصول إلى نيويورك وحده، جاء عمي لملاقاته في مرسيليا. هكذا وعلى أرض فرنسا جرى لقاء الأخ بأخيه، ليتابعا طريقهما معاً إلى أمريكا ويرفض عمي العودة فيقضي حياته فيها حتى مماته، فيما عاد والدي بعد بضع سنوات إلى الوطن لا يفكر بالهجرة بتاتاً لولا حرب جرت لاحقاً.

ذكريات مثيرة: طقم إفرنجي وانبهار

عاد أبي ليكون أوّل رجل في البلدة يلبس الطقم الإفرنجي!

رغم أن والدتي كانت أسوة ببنات جيلها ترتدي الحجاب التركي الذي يغطي ملابسها الإفرنجية، فإنها شيئاً فشيئاً كما كانت تقول وبمجيء الانتداب صارت تابعة لموضة العصر.

أُدرك الآن وربما سائر أخوتي وأخواتي أيضاً أننا لم نكن نسأل والدي بما فيه الكفاية عن إقامته في أمريكا وعن نمط الحياة هناك. من ناحيتي اكتفيت بما كان يرويه بنفسه عن عمران وتخطيط مدني ونظام وتقدم تكنولوجي ومصانع ضخمة وآلات متطوّرة وغسالات آلية وجلايات تجلي الصحون ونساء حرّات وغيرها من الحكايات المتداولة على ألسنة المهاجرين في أوائل القرن. وكوني صغرى أخواتي ونظراً للفارق الهام في عدد السنين التي تفصل عودته من أمريكا عن ولادتي، ولمسافة ممتدة بينه وبيني قوامها تسع أخوة سبقوني إلى الدنيا واستنفدوا الوقت والطاقة على التواصل

المباشر مع الأم والأب... كان لديّ إحساس بأن تجربة أبي في أمريكا تمتّ إلى قرن طواه الزمن.

لم يكن أبي يتكلّم الإنجليزية رغم معرفته البسيطة بها والتي في حكايته عن تجربته هناك كان يعود إليها ببعض الجمل والعبارات لإضفاء الطابع المحلي على الموقف. يبدو أن اللغة العربية لم تكن قد وُجدت بعد بالنسبة لأمريكا. فحين أحضروا لأبي في المؤسسة التي كانت تساعد المهاجرين، لائحة باللغات التي يمكنه انطلاقاً منها تعلم الإنجليزية، أشار أبي إلى اللغة التركية.

ما زالت صورته وهو في أمريكا معلّقة في بيتنا مع عمي وأولاده. وفي صغري كان يلفتني أن ربطة العنق التي يضعها في الصورة (البابيون) لم تكن تشبه ربطات العنق الأخرى التي يرتديها الرجال أي الكرافات. بابيون وطقم إفرنجي. وكان أيضاً من الأوائل الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسة الفرنسية في مدينتنا الصغيرة الواقعة على ساحل المتوسط جنوب لبنان: صور. والذين أرسلوهنّ في ما بعد إلى مدارس داخلية رهبانية أو غيرها ليتابعن تعليمهن خارجها. كان، غالباً، يلازمني إحساس خفيّ بأن والدي مختلف عن سائر رجال البلدة، لحدّ ما يكبر ويصغر حسب المواقف. وحسب بُعد المواقف أو قربها من التقاليد السائدة والأطراف المعنية بها. وأن هذا الاختلاف في ذهني يعود إلى هجرته السابقة.

كان يهتم بالاطلاع ويهوى المطالعة، رغم أن تحصيله العلمي لم يتجاوز بضع سنوات أمضاها في المدارس التركية ينشد فيها الأناشيد مع أقرانه للسلطان محمد رشاد. وفي الحرب العالمية الثانية كان من النادرين في البلدة الذين وثقوا بأفضلية الحلفاء على الألمان. كان لديه إعجاب واضح بقوّة أمريكا ومصدّقاً زعمها الحرية ونصرة الشعوب، وواثقاً بتفوقها على الغرب. وحين يتحدث عن إنكلترا يقول إنها أصغر من أن تكون ولاية من ولايات أمريكا وأن الإنجليز والفرنسيين يباهون بالقوة أكثر مما هم بالفعل أقوياء. وكان لا يفتأ يُكبر دور أمريكا في إنهاء الحرب العالمية الثانية. وحين انتصر الحلفاء كان تيار «الحرية والعدل» بالنسبة له قد انتصر.

والغريب أن الإنجليز حين دخلوا البلدة كان لديهم لائحة بأسماء رجال البلدة الذين «يعرفون الإنجليزية» فاستدعوهم ووالدي من بينهم للتعرف إليهم. وربما لتهنئتهم! لكن لم يحدث أن أياً من هؤلاء أقام علاقة مع الدخلاء الجدد الذين لم يكن أبي يكن لهم الحب والتقدير. كان والدي قد خبر خبث الإنجليز عن كثب. فبعد عودته

من أمريكا عمل تاجراً. وكان بحكم عمله كثير السفر إلى حيفا والشام إضافة إلى بيروت. كانت حيفا على مرمى حجر من مدينتنا وعكا أقرب منها. وكان في أسفاره يمكث فترات في فلسطين فشهد واحداً من أطول إضرابات العالم أي إضراب الـ ٣٦ وشهد تواطؤ الإنجليز مع اليهود. وكان له في فلسطين أصدقاء من جميع الطوائف بمن فيهم اليهود. وكان دائم الجدل معهم حول أطماع هؤلاء. ثم وبوقوع النكبة واحتلال فلسطين والهجرة تأكّد، كغيره من العرب، عداؤه للغرب، وعدم ثقته بهم كمخلّصين. وبدأ يفكر ثانية بالهجرة بعد أن سُدّت أبواب فلسطين التي كانت أسواقها مصدراً رئيسياً لتجارته. ولم تكن بيروت قد ازدهرت بعدُ ازدهارها الشهير. هكذا في تلك الفترة هاجر ثانية إلى أفريقيا الغربية ليمكث فيها بضع سنوات ويعود.

كان أبي يصغي إلى صوت أمريكا وإلى البي بي سي. مما كان يضايق أخوتي خاصة وأن الحركات الوطنية كانت آخذة في الصعود والناس جميعاً يستمعون إلى إذاعة صوت العرب كمرجع للمعلومات والمواقف. وكان أبي يختلف مع أشقائي ذوي الميول المتنوّعة القومية واليسارية حول المواقف السياسية. كنت بطبيعة الحال أميل لرأي أشقائي نظراً للجو العام ونظراً لعلاقتي المباشرة بهم فيما علاقتي بوالدي كانت أشبه بعلاقة المواطن بالحاكم.

كنت بسبب البي بي سي وصوت أمريكا وحذر والدي من مصداقية الإعلام العربي السائد، أكاد أظن أنه مناصر طبيعي للغرب. إلى أن وقع الحادث الجازم. ذاك اليوم كنت وحدي معه في البيت وكان هو يصغي إلى الإذاعة وإلى رجل يخطب وإلى جماهير تصفق. ورأيته ينفعل انفعالاً عظيماً لم أره من قبل. لدرجة أنه لم يتمكن من متابعة الاستماع فهرع إلى الحديقة ثم عاد منها ليرجع إليها ثانية مهرولاً وهو يردد: رجل عظيم. رجل عظيم.

لم أفهم لمَ كان يهرول وهو يكرّر عبارة رجل عظيم. لكني عرفتُ أن الخطبة كانت خطبة جمال عبد الناصر وهو يعلن تأميم قناة السويس. الخطبة التي طوّبت والدي ناصرياً إلى حين وفاته. والتي بعدها لم أتأخر كثيراً لأرى المشهد الذي سيظل محفوراً في ذاكرتي... حين عدت من المدرسة وجدت أمي وأخوتي وأخواتي جالسين قرب الإذاعة يبكون، يبكون الخسارات والبطولات التي دارت في العدوان الثلاثي على مصر. وأبي في غرفته حزين لا يحكي. كانت ثقة والدي بالغرب قد تزعزت تماماً فيما ازدادت قناعته بالعدل الأمريكي بعد إنذار أيزنهاور للغزاة بالانسحاب.

ما الذي يجعل الذاكرة تستهل حوارها عن التجربة مع الغرب بالحروب؟ أظن أنه في تلك المرحلة خطفوا بن بلا ورفاقه من الجوّ وأن حرب الجزائر وقضية جميلة بو حيرد كانت المناسبة لي وللفتيات في بلدتنا للإسهام في العمل العام. شاركت بالمظاهرات أهتف لجميلة ضد الفرنسيين والإنجليز وكنت في الرابعة عشرة من عمري. كان ذلك هو النشاط الوحيد الذي يُسمح به لفتاة في جو محافظ بمخالطة الشباب ومشاركتهم الأنشطة.

نعم لمَ الحروب هي التي تستيقظ داخلنا عند الحديث عن الغرب؟

الغرب وحكايات الحب

الغريب في الأمر أن حروب الغرب كانت مناسبة أيضاً لاكتشاف الحب. لطالما تحدثت شقيقاتي عن حكاية كانت وقتها على درجة عالية من الإثارة. عن إحدى الراهبات الفرنسيات في مدرستهن وكيف استيقظ الدير ذات يوم ليجد أنها خلعت ثوب الرهبنة ولفّته في ملاءة وهربت. حدث هذا في نهاية الحرب العالمية الثانية حين علمتْ الراهبة أن الشاب الذي تحبه وكان قد جاء إلى لبنان محارباً وانقطعت أخباره عنها، هو في حقيقة الأمر في عداد الناجين والعائدين منها.

لم أكن قد سمعت بقصص حب مماثلة. رغم أني منذ صغري كنت قارئة نهمة الحكايات الشعبية المترجمة وحكايات السندباد لكن مثل تلك القصص كانت خيالية وتدور في أماكن وأزمان لا علاقة لنا بها. لكن أن تقوم راهبة تدرّس أخواتي وتعيش في مدينتنا وقد نذرت نفسها ليسوع بما قامت به، فهذا ما نقل مسألة الحب إلى حيّز الواقع والمشاعر الحقيقية على الرغم من أن المعنيّة بالحكاية فرنسية، نقلها إلى المكان الذي ولدتُ فيه في زمن مقاربٍ لولادتي.

اللغة الفرنسية: الباب إلى الثقافة

كان أحد أخوتي منذ طفولتي قد سافر إلى فرنسا للدراسة، وكانت رسائله تصلنا لتصف الحياة هناك. وحين رجع كنت قد دخلتُ الجامعة لتبدأ نوعية قراءاتي تتغير. أكثر فأكثر صرت أقرأ باللغة الفرنسية التي كانت وما تزال لغتي الثانية مثل معظم أبناء وبنات جيلي قبل الغزو الثقافي الأمريكي. قبل ذلك كانت غالبية مطالعاتي بالعربية. وبدخولي مرحلة جديدة من حياتي صارت المطالعة بالفرنسية هي القاعدة

والاستثناء للغة الأم. لم تعد القراءة فقط للتسلية أو المتعة. بل صارت في غالب الأحيان مهمة، رغم إمتاعها، تهدف إلى إثراء وتنمية المعرفة وتحفيز التفكير. كانت جسراً لبناء حياة واقعية تماثل نمطاً آخر نحيا أصداءه في لبنان. كانت باباً نطلّ منه على نظريات حديثة تؤكد لنا أن العالم يتغيّر ويتحوّل من عالم إلى آخر أكثر عدلاً وإشراقاً... وتتغير فيه العلاقات. كل العلاقات. تلك التي تحكم الشرق بالغرب والمستعمِر بالمستعمَر والبلدان القوية بالضعيفة والحاكم بالمحكوم والمرأة بالرجل. وتبشر بحق المرأة في الحرية. حرية النفس والجسد والحياة.. وحقوق غير منقوصة مثل التي تمتع بها الرجل عبر العصور. لا بل وأكثر من ذلك فالمقولات تدعو إلى تحرير الجنسين معاً من تقاليد قديمة تمكنت من تكريس علاقة إستلابية تدمر السعادة وتقتل الإبداع. قرأنا كثيراً في هذه الموضوعات وكثيراً في مقولات تعيد النظر بالمسلّمات وتحاول فهم تاريخ العالم ونشوئه وتطوره واحتمالات هذا التطور في المستقبل.... وأخرى تحاول فهم النفس البشرية وتعقيداتها لا على ضوء التفسير القديم القائم على إدانة الميول الشيطانية بل على ضوء المعرفة والقبول والنمو. قبول دوافع الإنسان وضبطها عبر الامتثال والتماثل وتنمية القدرات والشخصية.

كما معظم أبناء جيلي قرأنا كل هذا باللغة الفرنسية وبظهور البنيوية وعلم الدلالات برزت الفرنسية لغة العصر والفكر وتزامنت شعلتها مع حركة ٦٨ لتتكرس فرنسا بلد الإشعاع والحرية. لم يكن للثقافة الأمريكية آنذاك كيانها أو اعتبارها المميّز في المنطقة. ولا لمناهجها التعليمية مقارنة بالمناهج الفرنسية. خاصة مناهج العلوم الإنسانية والآداب. فيما كنا نقرأ فرويد ونحن لم نبلغ العشرين بعد، كان طلاب الجامعات الأمريكية يقرأون بعض المقاطع عن نظرية فرويد. وفيما كنا نتناقش في الفلسفة الجدلية والوجودية كانت موضوعات مثل هذه شبه غائبة عن مناهج الجامعات الأمريكية. كان تكوّن لدينا يقين أن علم الجامعات الأمريكية يتقن فروع العلوم والهندسة والطب فيما تبقى الميادين الأخرى فيه تبسيطية.

أضف إلى ذلك أن دائرة الثقافة الفرنكوفونية كانت الدائرة المسيّسة المنتعشة بالجديد من التيارات الفلسفية والأدبية والفنية وبالجدل ذي الشعلة المستمرة. ولا أظن أن ندما أصابنا بسبب إقبالنا على هذه الحركات، على الأقل بالنسبة لغالبية من أعرف. فخلاصة التجربة، إذا كان للتجربة خلاصة، هي أننا في هذا المدّ المتأجج تعلّمنا التفكير الحرّ وصرنا مطالبين بحرية التفكير.

تعلمناه باللغة الفرنسية التي صارت لغة الثقافة والمسائل الحميمة والحب

وربما الشتائم والتأفف غير المسموح. ما همّ لو كان البعض يتقن هذه اللغة إتقانه اللغة الأم أو يتقنها لحد أقل ونسبي. المهم أنها صارت لغة الشأن الخاص والعام، لغة العلم والأدب والفن إضافة إلى كونها منذ صغرنا لغة العلوم والرياضيات. صارت اللغة الفرنسية وكأنها اللغة الأولى. حتى أني لما أردت أن أكتب روايتي الأولى ورغم أن لغتي الأولى التي أتقنها هي العربية، وجدت صعوبات في التعبير بها عن بعض الموضوعات. من خلال الفرنسية عشنا مع سيمون دو بوفوار في صراعها مع عائلتها لتخرج عن صورة الفتاة العريقة في الأصل والتقاليد ولتمضي في تجربتها الحرّة مع سارتر الذي أوّل ما التقته لم تستظرفه. لكنها ما لبثت أن انبهرت بأفكاره. عشنا عبر مؤلفاتها في مقاهي السان جرمان والحيّ اللاتيني ومونبارناس وبعض مناطق فرنسا. عشنا تجمعات المثقفين ووقوفهم بوجه الحروب وخلاف كامو وسارتر ووقوف هذا الأخير مع الجزائريين.

هكذا حين ذهبت إلى فرنسا رحت إليها بدون الصدمة الحضارية التي يُحكى عنها. كنت عشت في بيروت في أوج ازدهارها الثقافي. وفيها شاهدنا فرق الباليه العالمية والمغنين وغيرهم ممن جاؤوا إلى مهرجانات بعلبك. وبينهم آراغون الذي وقع لي على ورقة لا أدري أين صارت الآن. كنا قرأنا شعره وشغفنا به وبحكاياته عن إلسا وعيون إلسا ما همّ لو كانت صحيحة أو من بنات الخيال الدعائي. وغنينا أغنيات البيتلز وإن كنا حرمنا من رؤيتهم بعد أن أعيدوا بأمر من كمال جنبلاط من المطار «لخلاعة» الموضة التي يحملونها. وشاهدنا مسرحيات معدة من المسرح الواقعي والسريالي: بريشت ويونيسكو وبيكيت وشكسبير وراسين وموليير وغيرهم. واكبنا أفلاماً رائعة لمخرجين عظام خاصة الإيطاليين: فيلليني وأنطونيوني وبرتوليتشي وبازلوني وزيفرللي ومن سبقهم مثل فيسكونتي وفيتوريو دي سيكا وغيرهم. وموجة الأفلام الفرنسية الجديدة التي بمرور الوقت اكتشفت عدم انجذابي الخاص إليها لطغيان الفكر فيها عموماً على الصورة والدراما. وإن كان فيلم «امرأة ورجل» الذي أصغينا طويلاً لموسيقاه العذبة قد أثر برومانسيته على نمط العلاقات كغيره من الأفلام. شاهدنا أمهات الأفلام في نوادي السينما وكانت المتاحف العالمية بدأت تأتي إلى بيروت لتعرض تحفها فتتيح لنا رؤية «المفكر» لرودان في قصر سرسق. وبعد هزيمة الـ ٦٧ ورغم شعلة الغضب بسبب تواطؤ الغرب وأمريكا استمرت الفرنكوفونية في احتلالها عرش الثقافة في لبنان واستمرّ تأثرنا بها. هكذا وقبل أن نذهب إلى الغرب كان الغرب قد جاء إلينا.

جاء عبر مجلاتهم وصحفهم: الأزمنة المعاصرة والموند وغيرها... وعبر مجلاتنا أيضاً: مجلة شعر ومواقف ومجلّة الآداب والطريق وصفحات جريدة النهار الأدبية. وغيرها من الصحف التي صارت مرآة ثقافية لما يحدث في العالم. وقرأنا بروست وستندال ودستويفسكي وفلوبير، وآخرين أكثر حداثة كمارغريت يورسينار ودوراس، وغيرهم كثيرون. وكان تأثرنا بالرواية الفرنسية والمسرح تأثراً بيّناً ويكاد في مرحلة ما يكون شبه حصري لولا الروائيين الروس وبعض الأمريكان الذي وصلوا إلينا من خلال الترجمات. وأدت هيمنة الفرنكوفونية إلى تأخر نسبي في اكتشافنا عالم شكسبير، فيما كنا اطلعنا على دقائق عالم راسين وموليير وكرنييه وفكتور هوغو وفولتير وروسو وغيرهم. حفظنا مقاطع طوال من كتاباتهم ومثلنا مسرحياتهم. وحين كتبنا وعلى غير وعي منا كنا نعيد أنماط هذه الأعمال، أنماطاً لا يعيبها البناء المحكم ولا دراسة الشخصيات ولا التخطيط المسبق بل شيء آخر نسبي لحد ما لم أكتشف أبعاده إلاّ بالانقلاب العظيم في الفن الروائي الذي رنّ صداه في العالم بدخول روائيي أمريكا اللاتينية الساحة ليتوّجوا عليها ملوكاً وليفتحوا لنا دروباً أخرى أكثر ملاءمة لشخصيتنا وتاريخنا وقصصنا الشعبي والمخيّلة الحرّة الثرية والعميقة الجذور في الفن الحكائي الشفهي، وفي تداخل المتخيّل بالواقعي والأسطوري. هذا ليس تقليلاً من عظمة الفن الروائي الغربي. من ناحيتي ما زلت أرى أن كاتبة عظيمة مثل مارغريت دوراس قد أبدعت في وصفها دائرة المشاعرة المتهوّرة التي تحاصر الشخصية في لحظة العشق الأولى. أبدعت في ذلك إبداعاً متواصلاً بدءاً بـ«موديراتو كنتابيلا» وصولاً إلى «العشيق»، الرواية المفتاح التي فسرت حالات النفي في سائر رواياتها. ورغم هذا أعتبر أن أدب أمريكا اللاتينية هو الهزّة التاريخية التي حرّرت كتّاب البلدان «الأخرى» من سطوة الرواية الغربية والتي من شأنها أيضاً التأثير الإيجابي على هذه الأخيرة. وغيرها عمالقة آخرون توّج منهم جيمس جويس كاتب القرن.

التجربة الشخصية

ذهبت إلى فرنسا في أوائل السبعينيات بلا الصدمة الحضارية كما ذكرت. رغم أني حين وصلت باريس وجدتها مدينة ساحرة ورهيفة وكنت لا أملّ من السير في شوارعها وتأمل شغل الدانتيل الذي يزين واجهات عماراتها وشرفاتها. ساحرة ولسحرها طغيان وجاذبية. كانت أصداء حركة الـ ٦٨ طازجة. هذه الحركة التي

تركت بصماتها في نفوس جميع المطالبين بالتغيير في العالم. لطالما تساءلت لم لهذا الحد بصمت نفوسنا؟ لعل السبب أنها المرّة الأولى التي شعر فيها أبناء العالم الثالث أن الفوارق تكاد تلغى وأنهم صاروا أصحاب حق إنساني وأن المواطنة لم تعد حكراً على المواطنين. نعم كل واحد صار صاحب حق ونفسه عامرة بالثقة.

بين الأعوام ١٩٧٢ و١٩٨٠ عشت ست سنوات في فرنسا. بدأتها بهذا الإحساس الأصيل بالحق الإنساني. يعززه نظام التعليم المجاني الذي فتح لي الأبواب الحرّة للاستمتاع بمحاضرات كبار مفكري وأساتذة فرنسا. من رولان بارت إلى كريستيفا ومن سوريانو إلى أستاذي جمال بن شيخ. تتلمذت دون أن أتتلمذ بالمعنى الفعلي أو الضيق فحضور المحاضرات، أياً كانت حق لمن يشاء تلميذاً كان للأستاذ أو لغيره.

أصحاب حق: شعور تعززه الأثمان الزهيدة التي كنا ندفعها في المدينة الجامعية أو لحضور السينما والمسارح والعروض والمتاحف. لنتذوق نتاج حضارتهم وحضاراتنا. وندخل المكتبات العامة: أمهات الكتب القديمة والجديدة بمتناول يدك. أصحاب حق وثقة لدرجة بالكاد كنا نشعر بأنفسنا غرباء، الأطباء في المستشفيات يتواطأون معنا للعلاج المجاني أو شبه المجاني. ولأبنائنا الحق في ارتياد مدارس الحيّ أسوة بأي فرنسي.

أصحاب حق وثقة وإن كانت بمرور الوقت رائحة العنصرية تتناهى إلى الأنوف ذات الحساسية. كنت أول زيارتي لفرنسا ألاحظ الخجل الفظيع الذي يعتري الفرنسي إذا ما لاحت له في الأفق تهمة تنعته بالعنصرية. كيف وهو حفيد روسو وفولتير والثورة الفرنسية وقوانين نابليون؟ شيئاً فشيئاً بدأ الخجل من تهمة العنصرية يضعف. ليكثر الحديث عن «الغرباء» والشخصية «الوطنية». وذات يوم صارحتني صديقة وهي من الحزب الإشتراكي كم تمقت «هذا التافه» عبد الناصر وكم لا يسعها نسيان الإهانة التي وجهها إلى الفرنسيين في خطبة له إبان حرب السويس حين نعتهم بـ «المعطّرين» تقول هذا وآثار الإهانة الكلامية، لو حدثت حقاً، لكان عمرها خمسة وعشرين عاماً. وربما أنها خجلت حين ذكّرتها، بمآسٍ متتالية، أفظع بكثير من تهمة العطور، أصابتنا بسبب الغرب والتزامه الدائم بإسرائيل.

قال لي إبني وكان في الثانية عشرة من عمره ويرتاد إحدى مدارس الحيّ في الدائرة ١٣ في باريس، إن زميلاً له في الصف كلّما وقف ليتكلم همهم الآخرون:

محمد... غضبت وأجبته: إسم محمد إسم جميل وله دلالة عظيمة. فقال إبني: هذا صحيح لكن الولد لا يُدعى محمد بل أسامة.

بدأت أضيق بكل هذا. باريس ساحرة لكني أضيق بالحملات المجانية اليومية التي تبالغ بالسخرية من الإنسان العربي، وتشوّه صورته في المجلات والإذاعة والتلفزيون. هذا الأسمر ذي الزوجات الأربع الذي ينزل بهن من الطائرة معتمراً الكوفية والعقال آتياً لتبذير أمواله بلا حساب. لمَ الأسمر العربي مدعاة سخرية لزواجه من أربع؟ لمَ لا تنشغل الصحافة هذا الانشغال بالأفريقي الذي يعدد الزوجات حتى ولو كان مسيحياً؟ لم لا ينشغلون هذا الإنشغال بعادات «مثيرة» كثيرة لدى الشعوب الأخرى؟ كل هذا بسبب هزيمة الفرنسيين في حرب الجزائر؟ ألن يسعهم النسيان؟

ضحك أحد الأصدقاء الفرنسيين، وكان من ذوي الفكر الحرّ، وقال: ليس بسبب الحرب الجزائرية بل بسبب الحرب القادمة؟

ـ القادمة؟

ـ نعم القادمة. حرب البترول. لا بدّ أن يأتي يوم تُقام فيه حرب بسبب منابع البترول. هل تظنين أن الغرب قادر على مثلها بلا موافقة الرأي العام؟ وهل تظنين أن الرأي العام يُبنى بين ليلة وضحاها؟

نحن إذن في مرحلة التحضير!

يومها اعتبرت كلام الشاب، رغم منطقه، من المبالغات. كان ذلك في نهاية السبعينيات. قرابة عشر سنوات بعد ذلك سارت بضع مظاهرات واهنة في شوارع فرنسا تحتج على غزو الخليج. على الكذبة التي يدْعون الرأي العام إلى تصديقها. فهم قادمون لإحلال العدل وإرساء السلام وتأديب من سوّلت له نفسه الإخلال بهما.

ساروا بضع مئات ممن لديهم الإيمان بوحدة المعايير وإلغاء الفوارق وعدل القرارات. لم تأبه أي حكومة لمسيرتهم ولم يهتز قرار الغزو ولا الحصارات التي تلته والتي ما نزال نشهد آثارها الدموية كل عام.

عندما حاولت

طلب مني تجمع «باحثات» أن أكتب عن تجربتي مع الغرب، ورغم أني كاتبة روائية ومتأثرة بالأدب الغربي وباحثة في التحليل النفسي للأدب، هذا الفرع الذي

نشأ وازدهر في فرنسا كما ذكرت... إلاّ أني ترددت. لا لأن الموضوع لا يهمني بل لكونه بالغ الأهمية لدرجة أنه يصعب عليّ الخوض فيه.

عن أي غرب سأكتب وعن أي تجربة؟ تجربة الأدب أم تجربة الحياة؟ تجربة الحب أم تجربة الحرب؟ عن الأمس أم عن اليوم؟ عن الغرب ذي الضمير المستيقظ الذي يمنحنا الثقة أم عن غرب المصالح، الصلف، الذي يطوّر الأسلحة ويتفنن في إبادة أجناس معيّنة من سكان الأرض؟ وماذا عنا وما هي خطتنا لمشروع العدل والتواصل بيننا وبين الناس المختلفين، غربيين كانوا أم شرقيين؟

وماذا عن الغد؟

هل سيأتي يوم، كما قرأت، يضعون فيه اليد على خصوصية ما في نسيج خلايانا تمكنهم من الطريق «الكيمائي»، للقضاء علينا؟ أم أن الأحرار، أصحاب الضمائر اليقظة والوعي، سيهبّون لينقذوا ما تبقى من التواصل بين البشر ولينقذوا أنفسهم بالدرجة الأولى والأخيرة!

في تبديد الأوهام

ما أكتبه ليس سيرة ذاتية تحكي قصة حياتي، فأنا لا أحب أن أكتب عن نفسي فضلاً عن أنني لا أعتبرها شخصية متميزة يهم الناس الاطلاع عليها والتعرف على تفاصيلها. ما أكتبه، بعضٌ من مشاهداتي وجملة من ملاحظاتي التي كونتها خلال إقامتي في فرنسا، حيث ذهبت إليها طلباً للعلم فتعلمت في جامعاتها ثم علمت في مدارسها، الأمر الذي أتاح لي رؤية المجتمع الفرنسي من داخله والكشف عن عدد من جوانبه الخاصة والمميزة.

إذا كنت شاهدت فرنسا لأول مرة في أوائل ١٩٨٢، فإن فرنسا التاريخ والآداب والعلوم والثقافة، كانت قد وجدت مكانها في ذاكرتي منذ زمن طويل، وكانت حاضرة في تكويني الفكري والثقافي والسياسي. لقد أتيت فرنسا وأنا أحمل في رأسي شارلمان ونابليون ولويس الرابع عشر وغورو وديغول... إلى جانب راسين وكورناي وموليير وفولتير ومونتسكيو وروسو... كنت أجمع فرنسا الاستعمار، فرنسا المسؤولة عن مقتل مليون ونصف مليون جزائري وفرنسا الإخاء والعدالة والمساواة، فرنسا كومونة باريس و١٨ برومير وفرنسا الرأسمالية والاستغلال، فرنسا العلم والآداب والثقافة وفرنسا العنصرية والشذوذ والانحلال، كنت متأرجحاً بين الإعجاب والخصومة، تائهاً بين الوهم والحقيقة ومتردداً بين الرفض والقبول، ولقد زاد في ترددي أنني

قاسم القادري

سافرت إلى هذا البلد في فترة كنت فيها قد بدأت مراجعة ما كنت قد اعتقدته من المسلمات وأخذت أشك فيما كنت قد اعتبرته من البديهيات والثوابت.

من الأجواء العليا، ومن نافذة الطائرة بدت لي فرنسا لوحة فنية رائعة، صوراً هندسية شتى، مثلثة، مربعة، مستطيلة أو دائرية، طرقات مرسومة بكل دقة ومهارة، قرى وبلدات منتشرة بشكل منظم ومتناسق تزيدها سقوف القرميد جمالاً وبهاء... لوحة خضراء ذات طبيعة ساحرة، أضفت عليها يد الإنسان كل فنها وإبداعها... قلت في نفسي ولكن الناظر من بعيد يرى الأمور بالإجمال، لا يكاد يرى إلا المعالم الكبرى والخطوط العريضة، يرى الكليات ولا يرى الجزئيات، تنكشف له السطوح والأشكال الخارجية وتحتجب عنه الدواخل والمضامين... سوف أنتظر الرؤية القريبة لعلها تزيل الوهم وتبعد الشكوك وتصحح الأخطاء... ولكن المشاهدة الواقعية والمعاينة الحسية أتت لتؤكد الانطباعات الأولية. فأينما توجهت في فرنسا، يأسرك جمال الطبيعة وسحرها، غابات كثيفة وشاسعة، أشجارها باسقة ومتنوعة، جنائن وحدائق موزعة في كل المناطق والأحياء، تهيىء للعجّز مقاعد يرتاحون فوقها، وتؤمن للأطفال ألعاباً متنوعة يلهون بها وتقدم للرياضيين كل الوسائل التي تمكنهم من ممارسة هواياتهم، كما توفر للشباب أمكنة يستمتعون فيها بالقراءة ومناظر تثير فيهم مكامن الخلق والإبداع، وتمنح المراهقين أيضاً فرصاً لممارسة الحب والعشق والهيام.

غابات وحدائق غناء تملأ العيون بجمال نباتاتها وخضرة أشجارها وألوان أزهارها، تشغف الآذان بزقزقة طيورها وحفيف أغصانها وخرير مياهها وتنعش الصدور بنقاء هوائها ورقة نسائمها. منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من النهار، جماعات وافدة وأخرى مغادرة، بشر من كل الألوان، الأسود والأبيض والأسمر والأصفر ومن كل القارات الآسيوي والأفريقي والأمريكي والأوروبي ومن كل الديانات المسلم الذي يصلي فوق العشب واليهودي المعتمر برنيطة أو قلوسية والمسيحي الذي يضع شارة الصليب والبوذي المتلفع بثوبه، تتعدد ألسنتهم وتختلط لهجاتهم هذا يتكلم الصينية وذلك يتكلم العربية وآخر بالفرنسية أو الإنكليزية، ومع تعدد أجناسهم واختلاف عاداتهم وتقاليدهم فإنهم يتكيفون مع قوانين البلاد وأعرافها، فالآسيوي أو الأفريقي يتصرف في فرنسا بما لا يتصرفه في بلاده، ربما لأن لديه القناعة المسبقة بأن أبناء تلك البلاد متحضرون لا يرمون أوساخهم إلا في سلات المهملات ولا يتقدم أحدهم ليأخذ دور أخيه في صف الانتظار ولا يجتاز

إشارة المرور وهي حمراء... إنه في الغالب يتقمص شخصية أخرى ويغالي في التماهي والتماثل مع الإنسان الفرنسي فتراه يخفض من صوته ويترقق في لفظه ويتأنق في مظهره ويمارس ما لا يمارسه في بيته ولا يطبقه في حيه أو في علاقاته مع إخوانه.

* * *

المجتمع الفرنسي مجتمع عامل ومنتج والفرد الفرنسي عامل ومنظم، منذ الصباح الباكر تجد الفرنسيين طوابير متحركة، وقع أقدامهم وهم متجهون إلى محطات القطارات والباصات يذكر بحركات الجيوش الاستعراضية. جموع مزدحمة ومتلاصقة تنتظر القطارات والباصات تتراكض حاسبة وقتها بكل دقة وانتباه، تنام وتستقيظ في ساعات محددة وتترك منازلها في أوقات ثابتة وتقدر وصولها إلى مراكز عملها في أوقات معينة دون إهمال أو تأخير... بعد الساعة الثامنة صباحاً تخال الأبنية فارغة من أصحابها، فلا تلمح بشراً يجلسون على شرفاتها ولا ترى أشخاصاً يطلون من نوافذها ولا تشاهد أولاداً يلعبون أمامها إلا ما ندر... المجتمع كله يتحول إلى ورشة عمل ضخمة، كل فرد يأخذ موقعه ضمنها، تقاليد العمل ترسخت في النفوس حتى أصبحت من مكونات الشخصية، حتى المتقاعد يستمر في تنظيم حياته وإخضاعها لتقاليد العمل، ينهض ويعمل ويأكل في أوقات معينة وساعات محددة... المجتمع الفرنسي يعطي للعمل أهميته ووزنه، فالإنتاج ثمرة الجهد والعمل، والتقدم والنمو لا يتحققان إلا بالعمل، والاستقلال لا يتوطد ويتعزز إلا بالعمل... من لا يعمل لا يستحق الاحترام، ينظر إليه نظرة القاصر والتابع. لا يقبل الفرنسي بسهولة فكرة كون الفرد قادراً على العمل ولا يسعى إليه سعياً جاداً وحثيثاً، ولا يستسيغ شخصاً يرفض انتهاز فرص العمل المتاحة له مفضلاً عليها العيش على تلقي المساعدات وانتظار الهبات... الفرنسيون يلخصون حياتهم بثلاث كلمات BOULO - METRO (DODO - قطار عمل نوم). من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً ومنهم من لا يصل إلى منزله قبل الثامنة مساءً، لا يترك العمل للكثيرين منهم مجالاً للاهتمام بنفسه وأهله وغيره ويكاد يحرمهم متعة الراحة وفسحة التأمل... والفرنسي لا يقيم وزناً للمظاهر الكاذبة والتصرفات الخادعة، فهو لا يرهق نفسه بأعباء مادية باهظة إرضاءً لنزعة طاغية وخضوعاً لمفاهيم سائدة وتصرفات شائعة لا قناعة فيها ولا فائدة منها، حتى المرأة لا تجد حرجاً أن تحمل الفرشاة وتصعد السلم لتدهن سقف بيتها أو لتلصق ورقاً على جدران منزلها، كما أنها لا تجد مشكلة أن تسكن مع

زوجها في غرفة واحدة أو في غرفتين أو ثلاث إذا كان لديهما أولاد...

خلال إقامتي في فرنسا، تبددت بعض الأوهام التي كنت أحملها والتي كان مصدرها الأدبيات السياسية اليسارية التي طغى عليها طابع الثورة والتحريض والتي كانت تعبر عن فترات تاريخية مضى زمنها والتي تجاهلت دور الدولة في المجتمعات الرأسمالية وتدخلها بغية إرساء توازنات اجتماعية ساهمت في تحسين الظروف الاجتماعية للطبقات الفقيرة والمتوسطة... فالبطالة ليست كما كنت أوهم تقذف بالعاطلين عن العمل في الشوارع بلا أي مورد من موارد الرزق... العاطلون عن العمل في فرنسا يتقاضون في السنة الأولى أجوراً بنسبة ٧٥٪ من أجورهم التي كانوا يتقاضونها ثم تبدأ بالإنخفاض بشكل تدريجي، والبطالة تعني زيادة في التقديمات الاجتماعية، زيادة في المساعدات العائلية، زيادة في الإعفاءات من مبالغ مستحقة في المطاعم والمستشفيات والمدارس ووسائل النقل ومصلحة الضرائب... وغالباً ما يستفيد منها ويسعى للوصول إليها العرب والأفارقة ذوو العائلات الكبرى... أحد جيراني جزائري عنده ثمانية أولاد، عمل في إحدى الشركات مدة من الزمن ثم جرى تسريحه من عمله... كان يوم تسريحه كأيام العيد، فالتقديمات التي حصل عليها والإعفاءات التي استفاد منها جعلته في وضع أفضل من ذي قبل وهذا الأمر يزعج اليمين المتطرف الذي يرى في ذلك مادة تحريض عنصري ضد الأغراب الذين يستفيدون من قوانين وضعت لتشجيع الفرنسيين على الإنجاب وزيادة النسل ولا يستفيد منها عملياً سوى الأجانب...

* * *

لا أريد الدخول في دوامة البحث عن دور كل من الفرد والدولة وأيهما له الفضل في رقي الآخر، فالعملية متشابكة ومعقدة وليس هذا مجال الإجابة عن تلك الإشكالية، ولكني أود الإشارة إلى أن دور الدولة والمؤسسات الرسمية والأهلية هام وفعال. سلطة القانون فوق كل السلطات، الأشخاص والأحزاب يتداولون قيادة أجهزة الدولة وإدارة المؤسسات الأهلية والمدنية التي تستمر في حركتها وعملها بمعزل عن السلطة السياسية واتجاهات الأفراد وانتماءاتهم وأهوائهم... الأكثرية الساحقة من الفرنسيين تتعلم في مدارس الدولة وجامعاتها المنتشرة في كل الأنحاء. لكل حي روضته ومدرسته وثانويته، ولكل مدينة جامعاتها، يسجل التلامذة في المدرسة الأقرب لأماكن إقامتهم، وتقدم لهم الكتب مجاناً حتى نهاية المرحلة المتوسطة،

ويوضعون في الصفوف المناسبة لأعمارهم. التعليم مجاني في جميع مراحله والمنح الدراسية تعطى لأبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة. لكل مدرسة مكتبتها وقاعتها الرياضية، ولكل مدرسة مطعمها الذي يقدم وجبات الأكل للتلامذة بأسعار تتناسب مع مداخيل الأهل وتتفاوت تبعاً لظروفهم المعيشية وأوضاعهم الاجتماعية... ولكل حي مسبحه ومركزه الرياضي ومنتدياته المتنوعة التي تشرف عليها البلدية والتي تؤطر حركة الشبيبة وتلبي حاجاتها وتنمي قدراتها وطاقاتها... والرعاية الصحية والاجتماعية تشمل كافة المواطنين، ومستشفيات الدولة ودور المعاقين والعجزة منتشرة في كل المدن والمناطق، ومن لا يتمكن من دفع رسوم التأمين الصحي والاجتماعي تتولى البلدية أو غيرها من مؤسسات الرعاية الاجتماعية مساعدته وتحمل نفقات تمريضه... وتملك الدولة وسائل النقل والمواصلات العامة وشبكة الكهرباء والغاز ومصلحة البرق والبريد والهاتف وتشرف عليها وتقدم الخدمات للمواطنين بأسعار معتدلة... تكاد الدولة أن تكون كل شيء في حياة المواطن. العلاقات الأفقية بين الناس واهية وضعيفة ولا تكاد تلمس معالمها، علاقة الأفراد فيما بينهم لا تتم بشكل مباشر داخل دور السكن أو عبر الأحياء، علاقاتهم فيما بينهم علاقات عمل، تجري عبر المؤسسات، وتعيش داخل المؤسسات والهيئات وتنقطع لحظة الخروج منها وبعيد مغادرتها. إذا اعتدي على إنسان فلا دخل للأفراد الآخرين، ولا مكان للنخوة والشهامة، ولامحل للقيم التي تدعو إلى ردع الظالم ونصرة المظلوم... وإذا شب حريق في منزل أو تعرض للسطو فلا علاقة للجيران بهذا الأمر، وإذا دهست سيارة شخصاً، فقانون السير يحذر من نجدته وإسعافه أو لمسه، ما يستطيع المواطن فعله هو الاتصال بالدولة وإخبار البوليس والتفرج والانتظار!! حتى وصل الحد في بعض الحالات إلى اغتصاب فتاة في وضح النهار وفي داخل عربة قطار تقل حوالي أربعين راكباً دون أن يتجرأ أحد على نجدتها والدفاع عنها... طبعاً يوجد هناك العديد من المستنكرين لهذا التراجع في القيم ولتلك البرودة في علاقات الناس ببعضهم البعض. ويوجد الكثير من المتذمرين من تقاعس الدولة وتقصير أجهزتها في حل العديد من القضايا. ولكن واقع الحال أن دائرة السلبية وعدم الاكتراث تتسع وتستشري وشيئاً فشيئاً يسود المنطق الذي يعتبر أن التعاون والتضامن بين الناس هو عمل مؤسسات متخصصة ومنظمة كشركات التأمين ومؤسسات الرعاية والدفاع المدني والبوليس والصليب الأحمر، إلخ... ويرى أن المبادرات الفردية تعرقل عمل الأجهزة والمؤسسات، وتورط أصحابها في أمور لا

تعنيهم وتضعهم في قفص الاتهام حتى تثبت براءتهم...

* * *

خرج المعلمون يتراكضون على صراخ (مدام برينو) مدرسة البيولوجيا في إحدى ثانويات مدينة Vitry، كانت تلك السيدة في حالة عصبية متوترة، يحيط بها الطلاب من كل جانب ودموعها تنهمر فوق خديها وهي تولول بأعلى صوتها: لا تنادوني باسم ذلك الوغد... أنا (فرانسواز)، (فرانسواز) فقط... أدخلناها إلى غرفة الأساتذة وبدأنا نهدىء من عصبيتها فيما كانت تنهال سباً وشتماً على السيد (برينو) سبب محنتها وشقائها... لقد تزوجت منذ عشر سنوات والمرأة في فرنسا تحمل اسم زوجها، والطلاب وأهالي الحي لا يعرفونها إلا (مدام برينو)، ولكنها منذ أن طلقت زوجها تعاني من مشكلة اسمه الذي لصق بها والذي يذكرها كما تقول بكل العذابات والآلام التي واجهتها معه. لقد تخلت عن ولديها كما تقول لتقطع كل صلاتها به وهي تحاول عبثاً نزع اسمه عنها ولكن أنى لها ذلك وكل الذين يعرفونها لا يوجد في ذاكرتهم إلا هذا الاسم. كيف تستطيع بفترة زمنية قصيرة أن تمحو اسماً ترسخ في معارفهم منذ عشرة أعوام؟... قالت لها زميلتها (سالين) وهي تمسح دمعتها لا بأس عليك أيتها الصديقة لقد مررت أنا بظروف أسوأ من تلك، لقد اضطررت إلى ترك الحي الذي كنت أقطنه لأن الناس صاروا ينادونني بثلاثة أسماء مختلفة، منهم من يعرفني باسم زوجي الأول ومنهم من تعرف علي باسم زوجي الثاني والآن عدت إلى اسم عائلتي... مشاكل المرأة رغم الحقوق التي حصلت عليها ما زالت كثيرة، فالكثير من الكتاب والكثيرات من النساء ما زالوا يشكون من كون المجتمع مجتمعاً ذكورياً ومن كون التربية مساهمة في تكريس ذلك الواقع... هناك أسماء للإناث وأسماء للذكور، أزياء للنساء وأزياء للرجال، ألعاب للبنات وأخرى للصبيان، إلخ... وكثيراً ما كانت المعلمات تتندرن في أوقات الفراغ، على أزواجهن عندما يحاولون غسل الثياب، كيف يخلطون الأبيض مع الأسود والأحمر مفسدين بذلك العديد من قطع الثياب الثمينة... تشكو المرأة من كونها امرأة في مجتمع يخضع لسيطرة الرجل، فهي تعمل لتتحرر ولتتساوى بالرجل فإذا بها تجد نفسها تعمل خارج المنزل وداخله، وخاضعة للعبة الأدوار والمهمات وقوانين الطبيعة والبيولوجيا!!

مشكلة المشاكل في فرنسا هي مشكلة العائلة، هذا ما يراه عدد لا بأس به من علماء الاجتماع وعلماء النفس، تفكك العائلة يندرج على رأس المشاكل التي تجابهها

المجتمعات الحديثة بالإضافة إلى مشاكل المخدرات وتفشي الأمراض وتلوث البيئة وأخطار الأسلحة النووية... ففي الوقت الذي يتراجع فيه الإقبال على الزواج التقليدي الهادف إلى تكوين أسرة، لصالح المساكنة والمصاحبة أو لصالح الزواج الشاذ الذي شرع له مؤخراً (رجل مع رجل وامرأة مع امرأة)، فإن نسبة الطلاق بين المتزوجين نسبة عالية ومرتفعة وتترك آثارها السلبية على أكثر من صعيد... في اجتماعات الأهل التي تنظمها المدارس لدراسة أحوال الطلاب ودرس مشاكلهم، كنا نتعرف على جملة من تلك المشاكل التي تترك بصماتها الواضحة على نشاط الطلاب وسلوكياتهم... مشاكل الطلاب في أغلبيتها الساحقة كانت مشاكل أبناء المطلقين الذين تتغير ظروف حياتهم وتصبح أكثر تعقيداً... قالت لي إحدى السيدات كان أولادي يعانون من خلافي مع أبيهم والآن أعاني من رفضهم وعدم تقبلهم لزوجي الجديد.... وقالت لي أخرى أرجوك يا سيدي أن تتفهم وضعي فأنا امرأة مطلقة وأجابه الحياة وصعوباتها وحيدة ومنفردة. أولادي يفتقدون إلى سلطة الأب، إلى قبضة الرجل. أقول بصراحة أنا عاجزة عن ضبطهم!!. مشاكل عديدة قد توجد مثيلاتها في كل البلاد ولكنها تتفاقم وتتفشى بشكل بارز في المجتمعات الغربية حيث الظروف الاجتماعية تصبح أكثر تعقيداً وحيث تنمو الحياة الفردية وتتعزز عن طريق الإستقلال المادي، وحيث يطلق العنان للحرية الشخصية دون مراعات للضوابط الاجتماعية والإنسانية...

في حياة الفرد مكانة القيم والأخلاق أصبحت ضعيفة ومهزوزة وتكاد تكون ذكريات لدى العجائز، محور الحياة هو الأنا، المكاسب والملذات التي تتكرس عن طريق التشريعات والقوانين... لا مجال للتضحيات الضائعة والنخوات العنترية والمروءة الفارغة!... إذا كان الأكل معداً لثلاثة أشخاص فمعذرة من الرابع إذا لم يجد ما يقدم إليه، الفرنسي ليس مجبراً باسم الشهامة والعاطفة أن يبقى مسؤولاً عن شقيقته التي لم تجد شخصاً يقاسمها تكاليف الحياة، وليس ملزماً برعاية والديه لأن الله قد أوصاه أن يبر بهما... بقاؤهما تحت رعايته يفسد عليه متعته ويقضي على حريته وحركته... إذا كانت المصلحة المادية والمنفعة الشخصية حافزين هامين لدى جميع الناس فإنهما يطغيان لدى العديد من الناس في المجتمع الفرنسي... فهناك من يتزوج بدافع مادي محض، إذ يكون الزواج لدى الطرفين عامل تخفيض للضرائب والرسوم والأعباء وعامل استفادة من المكاسب والتسهيلات التي تمنح للمتزوجين، وإنجاب الأولاد عند الكثيرين مسألة اقتصادية في أبرز وجوهها، لأنها تعني زيادة في المكاسب والأرباح وانخفاضاً في التكاليف والأعباء... القيم الاجتماعية التي تدفع

الإنسان للمحافظة على وضعه العائلي وتقديمه على حساب وضعه الشخصي في بلد ما لا مجال لها في فرنسا... الوفاء ضعيف بشكل عام فالمرأة التي ترى مصلحتها أو رغبتها تشدها إلى إنسان آخر يفوق زوجها من حيث المواصفات الشخصية والمادية لا تتورع عن تركه غير آبهة برأي الأهل والجماعة، أو بمصير البيت والأولاد. والزوج الذي تتاح له فرصة الزواج من فتاة أصغر سناً من زوجته أو أكثر مالاً منها لا يضع رأي الناس في اعتباره، وحدها قناعاته واعتباراته هي التي تحدد سلوكه وحركته... دائرة العيب، دائرة ضيقة جداً، الأطفال لا يعرفونها، الحب، الجنس أمور طبيعية ومباحة. اللاطبيعي هو الخجل من ذلك حتى تصل المبالغة في الأمر إلى تخطي الأعمار وإلى القيام بحملة توزيع مجانية للموانع المطاطية على طلاب المدارس المتوسطة بحجة حمايتهم ووقايتهم من مرض (السيدا)... الأمرالذي دفع عدداً من الطلاب الذين لم يكن موضوع إقامة العلاقات الجنسية مطروحاً لديهم إلى التفكير جدياً في الأمر، فالتشجيع أتى من السلطات العليا... وزع الواقي المطاطي، إذاً لا بد من استعماله، هذا ما دفع مجموعة من الطلاب القليلي الخبرة في (شامبيني) إلى اختطاف فتاة بريئة لم يتجاوز عمرها عشر سنوات، حيث تم اغتصابها وتجريب البالونات الواقية بها!!

* * *

مع أن الكلاب تقتل حوالي الألف نسمة في كل عام، ومع أنها تكلف الدولة والبلديات مبالغ هائلة لتنظيف الشوارع والأرصفة من أقذارها، فإن ظاهرة اقتناء الكلاب منتشرة على نطاق واسع في فرنسا وتكاد تدخل في عادات وتقاليد أبنائها. في البيت والمدرسة، في المقهى والتلفزيون يتحدثون عن الكلاب والقطط... الكثير من أحاديث اللقاءات والزيارات محورها هذه الحيوانات الأليفة، يلتقي الفرنسيون في الشارع فتسارع الكلاب لتشمشم بعضها البعض، فتتحاب وتتآلف حيناً وتتعارك وتتعاض أحياناً أخرى، مما يجر أصحابها للحديث عنها، كل يعرض مشكلته مع كلبه، يخبر عن طبائعه وتصرفاته ويتحدث عن نوادره ومميزاته، وكثيراً ما تلمح عند البعض علامات الغضب والخجل إذا كان كلبه نابحاً وعدوانياً وقليل التربية، فتراه يبادر إلى الإعتذار والاستفاضة في شرح وتبرير الظروف الذي دفعته إلى هذا التصرف، بينما يفخر البعض الآخر لكون كلبه مطيعاً ومدرباً، حركاته لطيفة وملفتة، فيبادر للبرهان على ذلك بأن يأمر كلبه بالقيام بأفعال وحركات تدل على ذكائه ومن وراء ذلك على مقدرة صاحبه ومواهبه في ترويضه وتعليمه... وفي أكثر الأحيان تجر

الكلاب أصحابها إلى التعارف، فتصبح مواعيد نزهاتها فرصاً للقاءات دورية ومنتظمة... هناك أنواع كثيرة من الكلاب، هناك الكلاب الذئاب التي تربى في البيوت المستقلة وفي المنازل المنعزلة أو في الأرياف، وهي كلاب مدربة ومخيفة، والغاية من تربيتها الدفاع عن المنزل وأصحابه وحراسة الأرواح والممتلكات... وهناك الكلاب الصغيرة بأشكالها المختلفة، التي تربى داخل البيوت، تقفز في صالونات الضيافة من مقعد لآخر، تدخل إلى المطابخ وغرف النوم وترافق أصحابها في كل حركاتهم وسكناتهم، تاركة أوبارها فوق الأثاث وعلى مقاعد السيارات... الاهتمام بالكلاب مسألة ملفتة يكرس لها الفرنسيون الأوقات والإمكانيات... في ساعة متأخرة من الليل أو في الساعات المبكرة من الصباح يخرج الفرنسي مصطحباً كلبه متحدياً الثلج والمطر والصقيع، ملبياً رغبته في الخروج إلى الطبيعة لقضاء حاجته في الهواء الطلق أو لممارسة حقه في نزهته المعتادة...

في الأسواق وفي المراكز التجارية الكبرى تخصص أجنحة للوازم الكلاب من أدوات التنظيف والعناية إلى السلاسل والملابس وصولاً إلى الأغذية والأطعمة والأدوية... وللكلاب أيضاً أطباء ومراكز للعناية الصحية تعاينها إما دورياً أو عندما تدعو الحاجة حسب الحالة المادية لأصحابها وحسب درجات اهتمامهم بها... كما أن للكلاب مزينين وماشطين يغسلونها ويقصون شعورها ويتفننون في تجميلها وإبراز مميزاتها وتنظم لها مباراة لانتخاب أجمل كلب لهذا العام أو لاختيار أفضل لاعب أو أقوى عداء، كما كان شباب الحي الذي كنت أسكنه يعمدون إلى حبس كلابهم في أقبية ضيقة، مقفلة ومظلمة لكي تزداد شراسة وعدوانية تمهيداً لزجها في معارك حرة بغية اختيار الكلب الذي سيمنح لقب البطولة!!. وسبحان الحي الذي لا يفنى ولا يموت، فالكلاب يدركها الموت والفناء ومن أجل ذلك استحدثت لها المقابر وأقيمت لها النصب، ووضعت على أضرحتها الصور وأكاليل الزهور... كما أنشئت الجمعيات التي تتولى الدفاع عن حقوقها والعمل على تحسين ظروف معيشتها... كنت أعجب من أحد سكان البناية التي كنت أسكنها عندما كنت ألتقي به في مدخل العمارة محتضناً كلبه الصغير يداعبه ويملس شعره، كيف كان يقطب جبينه ويصفق البوابة خلفه غير آبه بمن أمامه ومن خلفه، كنت أفكر في حبه ورقته تجاه كلبه وفي شراسته وغلاظته مع جيرانه وأهل بيته حيث شاهدته مرة يصفع زوجته داخل سيارته على مرأى من الناس... أهو انتقام للوفاء الذي لم يجده إلا عند كلبه؟ أم حاجته إلى سلطة يفتقدها فلا يجد من يمارس سلطة عليه إلا هذا الحيوان البريء؟ أغلب الظن أن كثيراً من

الفرنسيين بدأوا يفتقدون توازنهم نتيجة طغيان الأنانية الفردية والقيم المادية، قيم الربح والوصولية، حتى أصبح العديد منهم لا يتحدثون إلا بلغة المال ولا ينظرون إلا بعين التاجر والسمسار. سعي محموم خلف الثروة وتعطش للكسب حتى ضاقت فسحة التأمل واتسعت مساحة التطلع إلى آفاق أعلى من الكسب والغرق في الملذات المادية... هناك نوع من الفراغ والخواء الروحي، من أهم أسبابه تفكك الروابط العائلية وتراجع القيم الخلقية والاجتماعية، فنصف الفرنسيين لا يتزوجون وأكثر المتزوجين لديهم ولد واحد أو اثنان والقليل منهم عنده ثلاثة أولاد... الولد مسؤولية كما قالت جارتنا (جانيت) التي كانت تعيش مع كلبها الضخم ذي الشعر الطويل في غرفة واحدة، والتي كانت بعد الطلاق من زوجها قد دفعت بابنها الصغير إلى والدتها لكي تقوم على تربيته، كانت ترد على زوجتي التي سألتها: لماذا تربين الكلب ولا تربين ولدك الصغير؟ فتقول: الولد مسؤولية، الولد قيد... أنا أستطيع أن أربط الكلب وأغلق الباب عليه وأذهب لعملي أو لقضاء حاجاتي ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك مع ولدي... هذا الفراغ الذي يعيشه عدد لا بأس به من الفرنسيين يجعلهم بحاجة إلى كلب ينبح أو قطّة تموء، بحاجة إلى أصوات تكسر حاجز الصمت المرعب وإلى حركات تبعث الحياة في جو السكون والجمود... الفرنسي الذي ينوء تحت ثقل الأوضاع المادية التي تزداد تعقيداً والذي يلهث لتأمين الحاجات الاستهلاكية المتزايدة بحاجة إلى حيوان يتمرغ عند قدميه ويظهر له المحبة التي خسرها والوفاء الذي افتقده... الطفل بحاجة إلى كلب صغير يعوض عن غياب الأخ والأخت والمرأة بحاجة إلى حيوان صغير تعطيه شيئاً من حنان أمومتها المجهضة والرجل بحاجة إلى مخلوق ينهي عزلته يتخاطب معه ويحاوره... لذلك تجد كثيراً من العجز إما يتكلمون مع كلابهم وقططهم طوال أوقاتهم وإما يتكلمون مع أنفسهم فتشاهدهم في الشوارع يقيمون حوارات وهمية، هادئة حيناً وغاضبة أحياناً ترافقها حركات بالأيدي وتعابير تظهر على صفحات الوجوه...

* * *

كنت قد تعلمت من أدبيات الماركسية، بأن البناء الاقتصادي التحتي، هو الذي يحدد البناء الفوقي الثقافي والفكري، وأن لكل طور من علاقات الإنتاج الإقتصادية قيمه وأفكاره ومعتقداته، المنسجمة والملائمة... فالدين والاعتقاد بالخرافات والأساطير هي نتاج علاقات الإنتاج الإقطاعية التي لا تلبث أن تختفي وتضمحل

وتتلاشى بعد حلول علاقات الإنتاج الرأسمالية، التي يأخذ العقل فيها دوره مكنساً أمامه كل الأوهام والتخيلات والأفكار المثالية... كدت أصدق ذلك للوهلة الأولى حين بدت لي الكنائس مراكز أثرية يقصدها السواح أكثر مما يقصدها المؤمنون وحيث رأيت بأن الأغلبية الساحقة من المتدينين الذين يؤمّون الكنائس جلهم من الأفارقة الذين يتجمعون أمام أبوابها بكامل أناقتهم، يرتدون البدلات الكحلية والقمصان البيضاء تدليلاً على رقيهم وبلوغهم المستوى الاجتماعي اللائق... ولكني عندما طالعتني الإحصائيات بأن نسبة الفرنسيين المؤمنين بالله وبالأديان تتجاوز الستين بالمائة، وبأن عدد الذين يستشيرون البصارين والمشعوذين والعرافين... يفوق العشرة ملايين شخص بالعام، وحين علمت بتزايد الجماعات السرية التي تسير خلف نبي مزعوم، يبشر أفرادها بقرب الخلاص وبترقبات خطيرة سوف تحصل، عليهم التهيؤ لها والتحضير لمواجهتها والتضحية بكل شيء من أجل تفاديها!. عندما لامست عن قرب أفكار الناس ومفاهيمهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم، وجدت أن الحياة تستعصي على المفاهيم المطلقة، ولا تفسر بالنظرة الجامدة والأحادية، وأعدت النظر في تلك المقولات خصوصاً عندما عايشت مجتمعاً رأسمالياً متطوراً يتألق في ميدان التقدم المادي والتقني وتزداد فيه مساحة المعرفة والعلوم ولكنه أبعد من أن يصل إلى مرحلة يستغني فيها عن الإيمان بالغيب وعن ابتكار وابتداع وتخيل ما يساعد الإنسان على تفسير المجهول الممتد أمامه بلا حدود وبلا نهاية وما يمكنه من مواجهة طغيان المادة واختلال التوازن... شاهدت العديد من المقابلات والتحقيقات وسمعت من الزملاء والأصدقاء الكثير من الأخبار التي تتحدث عن المعجزات الحاصلة أو المتوهمة، عن القدرات الخارقة، عن الصحون الطائرة، عن البيوت المسكونة، عن العالم الآخر ومخاطبة الأموات، عن طرد الأرواح الشريرة... إلى آخر ما هناك من أمور أصبحت موضع دراسة ومحط بحث واهتمام، أمور يتفاوت الإيمان بها وتختلف طرق تفسيرها بين فرنسي وآخر كما نجده لدى الشعوب والأمم الأخرى...

لا يتسع المجال للحديث عن العديد من الظواهر والمشاهدات الحية التي تجمعت لدي خلال إقامتي في فرنسا والتي اجتزأت منها ما ورد في خاطري حيث وجدت طريقها إلى الورق بكل عفوية دون صناعة أو قصد منهجي منظم... أخيراً أخلص إلى القول بأن ما اعتبره مميزات وخصائص عند الفرنسيين لا يتأتى من كونهم فرنسيين ينتمون إلى جنس محدد بقدر ما هو نتاج ظروف وأوضاع

ومعتقدات وأفكار سادت وتأصلت حتى جعلتهم يرتفعون في مجال ويهبطون في مجال آخر، يبلغون الذروة في ميادين التنظيم والتخطيط والعلم والتقنية، وينحدرون في ميادين القيم الخلقية والعلاقات الاجتماعية والعائلية حتى ضاعت الحدود بين الحرام والحلال، بين حق الإنسان الفرد وحق الجماعة، بين الحرية الغرائزية والحرية الإنسانية...

بحر الظلمات

حنان الشيخ

تلقي لميس نظرة على الزهور التي قامت بتنسيقها في الأواني، وفرقتها فوق المدفأة وعند المدخل، حتى في حمام الضيوف، «تماماً كما لو أني مازلت في بيتي الزوجي» تفكر وهي تملأ المنافض الزجاجية بالماء وتنثر فيها أوراق الورد، وتغلف الأطباق الصغيرة بالأوراق الملونة قبل أن تضع فيها الفستق الحلبي. شيئان لم تعتد على تحضيرهما من قبل، حرق اللبان العمائي في المبخرة وشراؤها للحمص وورق العنب الملفوف من مارك أند سبنسر، حتى تضيفها إلى الأطباق التي قام بإعدادها نيقولاس.

منذ البارحة ولميس تقف وتجلس وتتحرك من أجل هذا المساء، سيقدمها نيقولاس إلى أصدقائه ومعارفه، حتى يصبح لها عائلة تضمها إليها «حتى لا تبقى وحيدة» يقول لها.

ـ لكني سعيدة هكذا، على كل، لدي الكثير من الصديقات.

ـ لكنك لم تدعي أياً منهن؟ لا تلتقين بهن؟

ـ لأني مكتفية بك، إلا إذا كنت قد ضجرت مني؟

كانت لميس قد حضرت نفسها جيداً، أخفت القاموس الإنكليزي العربي في الحمام، حتى إذا حدث وفاتتها جملة من جراء كلمة، عثرة وقفت في دربها، استأذنت تدخل الحمام مستنجدة

---

* فصل من رواية ستصدر قريباً عن دار الآداب، بيروت.

بالقاموس، ثم لتعود ترمي جملة حول الموضوع ولو بعد وقت مستردة كرامتها، كانت قد حفظت اسم ولفرد تيثيغر مؤلف «عرب الأهوار» متذكرة القسم الأول من اسم وليام ثم كلمة تيغر، أي النمر، وأنه سوف ينقذها.

تشعر بأنها تدب على الأرض بدلاً من أن تسير. تصدر عنها أصوات كالأطفال. يأخذها أحد أفراد العائلة الإنكليزية التي كانت حولها، بيديها الإثنتين يحاول إعانتها على السير، ثم يرفعها ويضعها في حضنه. يعلمها أن ترد خلفه كلمات: مامي، دادي، قطة، نور.

تمر على ذهنها بفرشاة وكأنه حذاء تلمّعه لدرجة أنه أصبح يزيزق، تستجمع حضورها، لكنها تصاب بالفشل. أحاديثهم تدور في فلك إنكليزي محض، لا تستطيع أن تجامل فيه أو تنافق أو تخترع. يدور حول السياسة المحلية والقوانين. تفكر أنه كان عليها أن تحفظ غيباً ما نشرته صحف اليوم هذا، ثم تبدل رأيها، لا تعتقد أن هذا سوف يساعدها. كانت أحاديثهم كالنقاش الدائم المطعّم بالنزعة الفردية، حتى أحاديثهم عن الطعام كانت تتخللها كلمات لا تفهمها ككلمة Gastronomical Delights.

هذه مواضيع إنكليزية لم يتسنّ من قبل الاهتمام بها، على كل أنا عربية، علي أن أختار المواضيع العربية. حتى أراهم كما أرى نفسي الآن ضائعة عن طريق الكلام. من الأفضل أن أفكر بموضوع عربي إنما مواز لما يتحدثون حتى يحرك فضولهم واختطف الميكروفون منهم وأسلط علي الأضواء ولو لوقت قصير، حتى يصبح بيني وبينهم أخذ وعطاء.

عليها أن تسرع لقد أتتها الفرصة، هناك مربي الصقور الذي فقد وظيفته لأن أحد الشيوخ العرب في الإمارات العربية قد أعلن إفلاسه وباع مجموعة الصقور خاصته. أوشكت أن تتدخل قائلة بأن والدها يدرب العصافير على التغريد، لكنها أوقفت نفسها، عليها أن تربط قصة العصافير بالصقور، وإذا بأحدهم يسأل مربي الصقور إذا كان «ذو المنقار الأزرق» ضمن مجموعته، «قيل إن ثمن هذا يتراوح بين ٨٠ إلى ١٠٠ ألف باوند»؟

ـ أوه! إنهم يهربونها من جنوب سيبريا مع «صقور الغزلان» والسلطات الروسية تضبط يومياً عمليات تهريب واسعة.

ـ لربما تريد هي بيعه للمافيا!

ـ هل تعتقد أنها من الطيور المحظور صيدها أو بيعها؟

أوكي لقد كمشت الفكرة، هناك ما ستقوله ستكون الفائزة، هم يحبون الدعابة. إذا جعلتهم يبتسمون فقط دخلت عقلهم وبالتالي أعلموها بأنها أهل لانتباههم.

ماذا لو أخبرتهم عن عمتها التي صفقت الباب راكضة فوق الحصى والتراب وهي تصيح تولول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذا بيت نكاح! الطفلة تنكح الكرسي، والعصافير تنكح قماش الصوف، وحفافي الخشبة، وذكر الببغاء الذي دأب على مناداة: أهلاً وسهلاً، الله أكبر يعلو الذكر الآخر». ما زالت تبتسم وتوافق، تحكم بنبرة صوتها التي لم تر النور بعد. لا تريد نبرة صوتها التي لم تعتد على التحدث ضمن مجموعة من الإنكليز، أن تعلو قصيرة وحادة كأنها فأرة.

وأخيراً. أخيراً سألها أحدهم الذي لا بد أنه شعر بوطأة الثقل الذي كانت تشعر به:

ـ أنت عراقية إذاً، لجأت إلى لندن هرباً من طغيان صدام؟

ـ أجابت وكلها ثقة: الحقيقة أني جئت إلى لندن لأتزوج من رجل عراقي يعيش هنا.

وإذا بجملتها هذه أطفأت الترقب والفضول في عيني السائل. إذ اكتفى الرجل بهز رأسه وقوله «أووه» ثم انتقل ليتحدث وآخر عن سياسة إنكلترا والمقاطعة إزاء العراقيين، إذاً قرر الرجل بأن مجيئها إلى لندن ضمن ظروف عادية لا يستحق الوقوف عندها.

تحاول إعادته إلى الحلبة، تقاطعهما:

ـ لكن هربنا من العراق إلى سوريا ولبنان، لأن والدي فنان، موسيقار وهو لم يستطع تحمل هيمنة التعصب الديني على حياته، لكن عائلة عمي وآخرين طردوا ما وراء الحدود العراقية.

ـ تعصب ديني؟ لكن العراق هو غير إيران؟ غير الجزائر؟ قطعاً غير مصر، لم أعرف أن هناك متطرفين إسلاميين في العراق.

ـ أقصد النجف، كان والدي، ثم سكتت، القصة طويلة وتتطلب مفردات واستطرادات. تكتفي بالقول «إنها قصة طويلة» تنتظر إذا سألها ما هي حتى تمضي لكنه استأذن منها حتى يزيد من النبيذ في كأسه وتركها وحيدة.

هل تحدثت بلكنة عربية ثقيلة، واستعملت المرادفات والكلمات البدائية البسيطة والتي لم تضف على أحاديثها الذكاء والفضول؟ أم أنهم سيتذكرون أنها باتت من حضارة أخرى ولو كانت تقف وسطهم في ملابس أوروبية. لغة إنكليزية ذات مفردات بسيطة، هكذا كان حوار طرزان مع شيتا وسكان الأدغال. بين ريتشارد هاريس ورئيس القبيلة الهندية. لتفتح هذه الكلمات القليلة البسيطة أبواب حضارة ونفوس غنية.

ـ «أخبرني نيقولاس أنك من العراق؟ لا بدّ أنك من بغداد؟» يبادرها أحدهم بلغة عربية فصيحة، وقد ظن أن عليه أن يجحظ بعينيه ويتمطى بفمه ليتمكن من النطق بها».

ـ لا من النجف.

ـ النجف الأشرف، لم أزره، رغم أني ذهبت إلى بغداد في أواخر الستينات ونزلت في بنسيون كانت تملكه عائلة من الصابئة، كانوا مضطهدين، أذكر أنهم كانوا يؤدون صلواتهم في السرداب، ما جذبني إلى دينهم هو اعتقادهم بأن هناك صلة بين الكواكب والنجوم وبين الموسيقى، عليك إخبار نيقولاس عنهم، فهو كما تعلمين مهتم بعلم الفلك. ثم ينتقل الرجل إلى حضارة ما بين النهرين. تتحول لميس إلى كتاب تاريخ بعد أن كانت كتاب جغرافيا.

ـ أعتقد أنه في إنكلترا ما يقارب ٤٠ ألف عراقي. هل أنا مخطىء؟

تهز لميس رأسها موافقة ثم كاذبة: استناداً إلى الإحصاءات هناك ٤٥ ألف أو خمسين أعتقد ٥٠. يصحح لها القواعد خمسون ألفاً، خمسون مبتدأ وألف منصوبة.

ـ عثر في ألمانيا على ٤٥ عراقياً مختبئين في صناديق مغلقة وقد زودوا بما يسد الرمق وكانوا قد انطلقوا من اسطنبول في رحلة غامضة قادها المهربون إلى ألمانيا وقد تقاضوا ٣٥٠٠ دولار لكل رأس، والطريف أن الشرطة الألمانية سألتهم في التحقيق عن الطريق التي سلكوها...

وعندما لم يستغرب أو يبتسم عادت تردد: لكنهم كانوا في الصناديق ثم تبتسم ولا تتوقف عن الابتسام إلا بعد انفراج أساريره.

إذن تلقى الخبر استحساناً، تثني على قدرتها، فهي تفوهت بجمل لم تسمعها

من قبل، إذن اللغة هي اكتساب لا كما يقولون لا علاقة لها بالجذور، تجد نفسها تستعيد لسان حماتها كمسلسل «الجنية Bewitched» لتحدثهم عن قريب الملك المغتال فقصة الذي نصب نفسه ملكاً في المنفى منتظراً انهيار حكم صدام حسين. وكيف أن بعض العراقيين في إنكلترا يلتفون حوله لأنه يذكرهم بالملك الصغير فيصل. عن قريبتها التي اختبأت في صندوق قمامة في العراق خوفاً من عدي ابن صدام.وكيف أن الزغردات لا تتوقف في الأعراس حتى ولو في أفخم فنادق لندن، كذلك لا يتوقف النحيب في المآتم حتى يتأكد المندسون في هذه التجمعات من حقيقتها ولا يفسرونها مظاهرة ضد صدام.

ثم لترفع حديثها عن الثرثرة، تزود بجملة الأمم المتحدة والـ UNFAO والـ AMNESTY ولجنة رفع الحظر. ثم وكأن شاشة تلفزيون أقيمت بينها وبينهم هم المشاهدون وهي مراسل من العراق لا تناقش ولا تحاور، بل تغدق المعلومات والنشرات ثم تتحول إلى مضيفة. تسأل بعضهم لأن يضعوا المزيد من الطعام في صحونهم، تدور بزجاجة النبيذ الأحمر على كؤوسهم، تبالغ في دورها حتى أصبحت كناية عن ست بيت لا أكثر ولا أقل لذلك عادت ودفعت نفسها لإقامة جسر بينها وبينهم من جديد وهي تذكر نفسها بأنها سوف تجتمع مع بعض هؤلاء دائماً. ونيقولاس لم يتوقف عن تقديمها لآخر وآخر. وهي تحاول أمام كلماتهم الصعبة، أمام إيقاع لفظهم السريع، أمام المباراة ما بين العارف وما بين الأكثر جدية والأكثر طرافة أن تأخذ وتعطي معهم. عندما تلهث ولا تصل، تتأكد من أن في الأمر مؤامرة. لم تكن الأحاديث تلقائية، كأنهم ارتدوا خطة كماارتدوا ملابسهم من أجل حضور هذا العشاء، تمكنهم من كيفية إدارة دفة الأحاديث لصالحهم، وعن ماذا سيتحدثون؟ ثم توقف نفسها. تذكرها بالمستمعين وتعليقاتهم التي ولدت اللحظة والتي كانت على مستوى فطنة المستهلين للحديث.

تعود للاهتمام بالصحون والأقداح وإذا بها تعود إلى الواقع من جراء إمساكها بها وإدخالها المطبخ. هي امرأة عربية ما تزال في بلدها، تقيم عشاء للأصدقاء، وهناك زائر إنكليزي لطيف في الصالون تعلم اللغة العربية ويسمع نشرات الأخبار ويعرف كيف يتنقل في الشوارع وحيداً حتى أن سائق التاكسي أثنى على لغته العربية. مع ذلك فهو لم يستطع حفظ أسماء رؤساء الأحزاب كلها واللحاق بالكلام العربي المبطن والذي كلماته كانت تجر وراءها تاريخاً ومواقف. وهي في الموقف نفسه تعرف

الكلمات، تعرف بنية اللغة، لكنها تجد صعوبة في التحدث، لأن اللغة بدت لها الآن كنادٍ خاص، محظور دخوله على فرد لم يزرع اللغة في عقله كبذرة، حتى تَنْبس شفاهه بها من غير أن يعي، فالكلام عليه أن يكون حقيقياً.

هؤلاء الإنكليز مجبولون بصرختهم الأولى في المستشفى الإنكليزي. كيف لها أن تنافس صوت الدم الذي يضخ في جسم الأم: ليش، ليش أي إنكليش، إنكليش إنكليش. كيف أخلط التاريخ والأدب والسياسة الإنكليزية حتى عندما يحدث وأسمع كلمة «المسرحية الإسكوتلندية» لا أستفهم ما اسمها، بل أعرف أنها «ماكبث» وأستجلب صوراً وأنا أسمع كلمة «Fiver» خمسة باوندات وكلمة «Cuppa» كوب الشاي، والطفولة تخطر ببالي إذا رأيت Marmite أو سمعت لفظه، وعندما جلس دايفيد كوبرفيلد أمام نار المدفأة ترى هل تلسعني نارها كما تلسع الإنكليزي وهو يقرأها ويتشمم رائحة المدفأة؟ ثم لتكتشف أن وجودها فقط هو الذي جعل الحديث يتعرج ولو قليلاً عن خطه، أحاديثهم كانت توضع في قوالب، حسب وظائفهم، قالب السياسة، قالب الأنتيكا وتجارتها، قالب السفر والرحلات.

ـ لم أرك بعد الظهر في بيت أنطوني؟

ـ مسكين لم أذهب عن قصد، كيف حال أولاده؟

ـ أخذوا قضية موته بكل شجاعة.

تشهق لميس.

ـ أوه هل أنت تعرفينه، أعتقد أن نيقولاس يعرفه!

تغالب سعالاً مصطنعاً وتقول «لا» بطريقة لا يسمعها أحد إذ انتبهت أن شهقتها كانت متلهفة وعالية. نشهق عند سماعنا كلمة موت.

ـ اخترت من أشياء أنطوني بعض الكتب والأسطوانات ويداً من خشب من مجموعة الأيدي خاصته لكنها لم تبادرهم قائلة: «الطريف أني بدلاً من أن أجد أسطوانة رافيل، وجدت في المغلف أسطوانة لهاتش Hutch.

ـ لا بأس! أحب هاتش!

تتمنى لميس لو أنها القائلة. تعليق بسيط إنما يظهر أنها في وسط الأمور والحياة رغم أنها لا تعرف إذا كان هاتش مغنياً أو موسيقاراً، ولولا «بوليرو» لما

عرفت من هو رافيل.

ـ وأنا أتصفح، مسز بيتون وإذا بالصفحات تفتح نفسها عند حرف الـ C، وعند وصفة سمك الكود المشوي بالذات، وجدت كيساً صغيراً من الكوكايين.

ـ طريق أنطوني عظيمة في تنسيق وضبط ملفاته!

يضحك الجميع ومعهم لميس.

كيف تعرفت على نيقولاس؟ متى تعرفت على نيقولاس، هل تعمل مع نيقولاس، هكذا كانوا يدورون حول بعضهم يستفهمون وكأنهم يمسكون بميزان عجيب، يزنون به أهمية نيقولاس الفردية والاجتماعية حتى يصلوا إلى رقم ما.

تتركهم يفتحون مفكراتهم ويتبادلون العناوين، هذا المدعو تحمس لحضور هذا العشاء، وكله يقين بأنه سيلتقي بمدعو آخر، صديق نيقولاس حتى يستشيره بشيء ما يتعلق بعمله. وها قد نجحت مهمته. عدا أن الطعام شهي وليس إنجليزياً، وهذه الدعوة أعفته من إعداد طعامه لهذا المساء. في الدعوات العربية يدخل المدعو العربي وهو يفكر كيف سأظهر مركزي، ثرائي، كيف سأتعالى على المدعوين، كيف سأحاول تجاهل من هو معروف وناجح. هل طاولة الطعام عامرة بالصحون كما يجب؟

يرن الجرس رنات متواصلة يجيب نيقولاس على الأنترفون ثم يهرع تاركاً الشقة ليعود بعد لحظات بصحبة امرأة، جميلة الوجه ما إن دخلت حتى توقفت الأفواه عن الكلام والمضغ والشرب. أنيتا الشقراء ببنطلون يصل إلى الركبتين. كان من البرق الأحمر يكشف عن أردافها ومؤخرتها ويرسم ضيقة مثلثها. الكعب العالي الرفيع كاد ينقصف مع كل خطوة، كنزة للأطفال طمست بها صدرها وبانت عظام قفصها الصدري. «كنت مارة بالتاكسي وحزرت أن لدى نيقولاس حفلة لم يدعني إليها، لم يكن لدي فكة للتاكسي».

لو لا أنيتا ورجل اسمه آدم كان قد سأل إذا كانت لميس تعيش مع نيقولاس وهو يثني على الطريقة المبتكرة في تنسيقها للزهور لما استرجعت لميس ثقتها بنفسها. فأنيتا كانت أسوأ من تخبط لميس بين الأفعال والأزمنة، كانت تتحدث في ظلِّ اللغة الإنكليزية، بصورة مهزوزة سواء باللفظ أو باللكنة. كانت تخطف الأحرف وتبدلها وتلفظ حرف الجيم وكأنها حرف الياء فتقول Injoy ومع ذلك شرطت الستار الذي يقف بين الإنكليز والآخرين وأصبحت في شقهم. سارت بالأحاديث

أشواطاً رغم أن أحداً لم يسألها عن الدانمارك، فهمت وأفهمت وحاورت وتحاورت، طفا الحديث بينها وبينهم وغرق بكل تلقائية من غير تكلف. «لأنها الدانمارك» تفكر لميس، «لأنها أوروبية».

ـ أوه أنت من آربيان؟

يصححها نيقولاس: من العراق.

ـ أجل أجل آربيا «تقول لها لميس».

ـ نيقولاس متى عدت؟

ـ منذ ثلاثة أسابيع.

ـ لقد سألت عنك في سوذبيز، ذهبت لأرى رسائل وصور بيار لوتي إنها رائعة سأحاول أن أشتري صورة وهو كنفرتيتي، آسفة نسيت اسمك.

ـ لميس.

ـ لميس هل تعرفين لوتي؟ بيار لوتي هو الذي جعلني أحب أرابيا خاصة عندما يتحدث عن الرائحة فيها فيقول: «إنها كرائحة المسك، منعشة ولذيذة»، هو الذي زادني حماساً حتى أزورها، أوه... صوره بالأزياء العربية جميلة جداً، عليك رؤيتها، هي فعلاً ملهمة.

تنظر لميس وتبتسم، تفكر لميس كيف لم يقع نيقولاس في غرامها، أو أنه وقع في الماضي؟

ـ إسمع نيقولاس، أوكي إسمعي ليسم. آسفة. آه لميس، أحب اسمك. غريب كنت أفكر بآرابيا طوال هذا الأسبوع وها أنا ألتقي بك... هل تعرفين أن الحريم هو عمل سادي ماسوخي، في آن. لم يفكر أحد من قبلي بهذا ولا حتى المستشرقين، الحريم يساعدن بعضهن البعض في الحمام والزينة والتدليك والتبرج استعداداً لسلطان واحد، ثم ينتظرن حتى يختار هو واحدة منهن، هكذا وهن جالسات معاً، هل تتصورين الغيرة والعذاب، عند اختيار السلطان لهذه وليست تلك! أريد أن آخذ صوراً من جديد للحريم، لا أعرف كيف لكن لدي فكرة عن السلطان أريده أن يرتدي هكذا، «تفتح ملفاً جلدته من الفراء الاصطناعي ومن بين الصور تخرج صورة لرجال من اليهود الأرثوذوكس بقبعاتهم والضفائر المتدلية من على الجانبين معاطفهم السوداء ولحاهم

يقبلون حائط المبكى».

ـ أليست هذه الصورة غريبة؟ من هؤلاء الرجال يا ترى، ماذا يفعلون هل هم يحبون الجدران؟ أنظر إنهم يحفون أنفسهم به. هل هو يعذبهم؟

تغرق لميس ونيقولاس بالضحك، تجد أنيتا نفسها تضحك معهما من غير أن تفهم لماذا.

يتركهما نيقولاس ليودع آخر المدعوين ويتبادل معه الحديث عند عتبة الباب. وبلحظات تعرف أنيتا كل شيء عن لميس.

ـ هل صعب الطلاق؟ أنت عربية؟

ـ لم يكن صعباً عملياً، نفسياً أجل.

ـ لماذا تطلقت؟

ـ داهمتني كآبة امتدت أشهر، كلما نام معي زوجي تقيأت.

ـ كان يغشى علي من الضحك عندما كان يضاجعني نيقولاس.

ـ لماذا؟ «تسألها لميس وقد هبط قلبها».

ـ لأنه رومانسي ورقيق! في المرة الأولى قال لي: «أريد أن أعزف لعينيك الجميلتين أغنية» وما أن رأيته يرفع غطاء البيانو حتى ضججت من الضحك، على كل، المضاجعة العادية لم تعد تروق لي إنها مملة، عندما أعرفك أكثر أخبرك ما أقصد.

ـ كيف تعرفت على نيقولاس؟

ـ في حفلة من الحفلات، لفت نظري عندما سأل صديقتي الممثلة الإنكليزية: «لماذا هي ترتدي حذاء طبياً» وكانت هي طبعاً ترتدي جزمة قد دفعت ثمنها ما فوق المائة والخمسين باوند وعندما سألته من أين جاء بهذا القميص الجميل مزق ياقته وأعطاه لي.

يهبط قلبس لميس، لكن أنيتا تستأنف: «حماسي حتى يدعوني إلى شقته كان لا يوصف، وإذا به يفتح الإنجيل يبحث فيه عن مقطع وأنا أكاد ألهث من جراء رغبتي به، هل تتصورين أحداً يدعوك إلى شقته ويقبلك على شفتيك قبلة كلها رغبة ثم يفتح لك الإنجيل. «نيقولاس» تنادي الآن «ماذا قرأت لي من الإنجيل؟ شيئاً عن بنات

صهيون ممدودات العنق يمشين بالخلاخل؟ لقد نسيت».

ثم كأن الثلاثة يتشابكون معاً وكأنهم ثلاثة خيوط أمسك بكل منها ولد عند باب محل الطراز. كلما بدل الأولاد أماكنهم بقفزة قدم كما غزلت الخيوط الثلاثة وضفرت نفسها. أوقدت أنيتا شرارة التوتر والاشتهاء الفوري لدى نيقولاس ولميس، لتنتقل إليها شهوتهما وتحفزها لتتصل بالرجل الذي يختفي من حياتها ويظهر كما يريد.

تتقلب لميس في السرير لولا إطلالة أنيتا لكان الحزن جعلها لا تقوى على أن تبادل نيقولاس كلمة واحدة، عندما عرفت أن مسز بيتون هو كتاب طبخ معروف في أميركا وإنكلترا أيقنت أنها تظل على سطح الكلام. مستمعة لا متحدثة، مستمعة بلاد العجائب.

أسأل نيقولاس عن وظيفة المرأة التي خاطبتني بلهجة عدائية عندما عرفت أني من العراق.

ـ «يجب أن تكفوا عن الهرب والتسلل خارج العراق، عليكم أن تتحدوا وتوقعوا نظام صدام حسين، هروبكم لن يبدل شيئاً»، قبل أن أجيبها استهزأ بها ذلك الرجل واسمه «جون» وقال لها Hear! Hear! وأنا قلت لها ما أسكتها، أخبرتها عن عائلة خالتي التي أبيدت من جراء قصف الطائرة العراقية عندما كانت مع آلاف تنتظر نجدة الأميركيين في السهول والجبال.

ـ حبيبتي هل تعرفين ماذا تعني كلمة Hear Hear!.

ـ طبعاً أعرفها هي التي نسمعها على أفواه النواب في البرلمان عندما يستهزئون من الخطيب «إسمع إسمع، أي إسمع ولا تصدق».

ـ «حبيبتي لميس» يحضنني ويقبل لي شعري وهو يغالب ضحكه. «إنها تعبير موافقة وثناء».

عندها أفكر بأني سأظل على سطح الكلام والحياة هنا وبأنه علي أن أفعل شيئاً، ثم أفكر أن أسأله عن أنيتا لكني لم أفعل.